سِلْسِلَةُ النُّورِ الخَالِدِ

الرَّسُولُ ﷺ قَائِدًا

التَّنْظِيرُ وَالتَّطْبِيقُ



٥

المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: أورخان محمد علي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٥

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 975-315-177-2

الهاتف: (+٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١) فاكس: (+٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة — الحي السابع — م. نصر — القاهرة

تليفون وفاكس: +٢٠٢٢٦١٩٢٠٤

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٥



الْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ كُولَنْ

الْمُتَرْجِمُ : اُورْخَانْ مُحَمَّدْ عَلِي



القسم الرابع

الجانب العسكري

للرسول ﷺ

الفصل الأول:

النبي العسكري

أ- أهداف الجهاد

لقد سد الله أمامه أبواب الجهاد المادي لبعض الوقت، وذلك تمشياً مع طبيعة الأشياء، ولأن لكل شيء وقته المرهون به، ودام هذا لسنوات طويلة. وبعد لأْي أذن الله تعالى بالنضال المشروع، وسمح لهم باستعمال القوة والدخول في الحروب قائلاً لهم: لقد آن لكم أن تدافعوا عن أنفسكم وعن حقوقكم. وقبل الدخول إلى هذا الموضوع العريض والعميق أود أن أقوم بشرح بعض الأمور التي تكون أساساً لإثارة بعض الأسئلة أو الشبهات في بعض الأذهان.

وقبل الدخول إلى موضوع فطنة الرسول ﷺ في إدارة الجيوش وتعبئتها وسوقها وإدارتها، فمن المفيد التوقف قليلاً حول العهد الذي شُرع فيه الجهاد. فمن المهم جداً معرفة المعنى العام للجهاد من جهة، ثم معرفة تاريخ بدء الجهاد المادي أي الأمر بالقتال من جهة أخرى. ذلك لأن أعداء الدين يقومون بتشويه معنى الجهاد، كما أن بعض الأصدقاء الجاحدين يقومون بخلط التواريخ، وبالتالي ببلبلة الأذهان، لذا فلا أرى بداً من القيام بتوضيح بعض الأمور لكلا الجانبين.

لم ينحرف الرسول ﷺ طوال حياته قيد شعرة عن مبادئ الإسلام، فحياته كلها كانت عبارة عن قيامه بتطبيق الإسلام في الحياة وصبه في الواقع العملي.

وهذا ينطبق على موضوع الحرب والجهاد مثلما ينطبق على سائر المواضيع والمجالات الأخرى.

١. الدفاع

لقد أباح الإسلام للأفراد وللأمم حق الدفاع عن النفس ضد من يهدد كيانها ووجودها ضد القوى المعادية لها، بل حث على ذلك في بعض الأحيان. فإن أراد أحدهم التعرض لك ولمالك ولحياتك ولدينك ولعرضك تصديت له وجهاً لوجه، ودخلت معه في صراع مرير. لنفرض مثلاً أن أي دولة من الدول تجاوزت الحدود الفاصلة بينك وبينها ودخلت أراضيك، فماذا تعمل؟ وإذا قامت بتحريض بعضهم في بلدك وأطلقتهم عليك فماذا سيخطر على بالك؟ وإذا تعرض أبناء دينك في مكان ما إلى ظلم وإلى غدر فكيف ستتصرف؟ لاشك أنك لن تكتفي بالقول "لا شيء، لن أعمل شيئاً."

وانطلاقاً من هذه النقطة فقد وضع رسول الله ﷺ كيفية استعمال القوة داخل إطار من الانضباط قبل أربعة عشر قرناً. فأشار إلى ضرورة استعمال القوة إن اقتضى الأمر بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد إن أراد المسلم أن يحيا حياة كريمة وحياة عزيزة. أجل على المسلم أن يكون قوياً، وأن يستعمل القوة في سبيل الحق، وأن يُسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلاً للتوازن الدولي.

٢. ردع الظلم

هناك الكثيرون ممن لحقهم الظلم والحيف والغدر في هذا العالم. ونحن نظن بأننا عندما نبسط حمايتنا عليهم، أو عندما نسجل بعض النجاح على المستوى

السياسي لصالحهم نكون قد حللنا الموضوع. صحيح أنه قد يُعد هذا أمراً معقولاً بنسبة معينة.. أجل، إننا نفتح صدورنا لإخوتنا في القومية وفي الدين ونحـــاول أن نحل بتضحياتنا بعض مشاكلهم، ولكن لا أدري أي جزء من هذه المشكلة ننجح في حله. فبالقرب منا هناك ما يقارب ١,٥-٢ مليوناً من الذين تعرضوا للظلـــم والقهر والذين مُنعُوا من أداء شعائرهم الإســـلامية ومـــن اســـتعمال أسمـــائهم الإسلامية.. فإن استطعنا أن نفتح صدورنا لنصف مليون منهم فإن مليوناً أو أكثر سيبقون هناك تحت وطأة الظلم.[1] فإذا كنا عاجزين عن حل مشكلة صغيرة أمام دولة صغيرة فكيف نستطيع التصرف إذن، أمام المشاكل العديدة للدنيا والمتعلقـــة بنا عن قريب؟

إذن، يجب أن تكون هناك دولة إسلامية بحيث يحسب الكـــل حـــسابها، وعندما تقطب حاجبيها أو عندما تغضب قليلاً يرجع الآخـــرون إلى صـــوابهم ويعرفون حدودهم. وهذه القوة التي ترهب الآخرين يجب أن تكون متـــوفرة وموجودة على الدوام لكي يتسنى الإسراع لنجـــدة المظلـــومين والملـــهوفين ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يكون بإظهار هذه القوة الكبيرة أحيانـــاً كلما استوجب الأمر. وقد تم هذا في الماضي بهذه الصورة، فعندما كنا نقـــوم بمهمة تمثيل هذه الوظيفة في التوازن الدولي، كان يكفي أن نعلن "أن الأسطول العثماني السلطاني متوجه الآن نحو المحيط الهندي." كان هذا الإعلان كافياً لكي يخيف إنكلترة التي كانت تبيت النية لاحتلال الهند ويجعلها تنكص على عقبيها. أجل، لقد كان ثقلنا كبيراً في التوازن الدولي في تلك العهود. وبفضل هذا الثقل

(١) إشارة إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في بلغاريا عام ١٩٨٩ ضد المسلمين.

الكبير، وبفضل دور الحكم الذي كنا نلعبه كان المظلومون والـذين أصـابهم الحيف أو الغدر يهرعون إلينا لإحقاق الحق وإبطال الباطل في عالم واسع يمتـد من فرنسا إلى الهند.

أجل، لقد شرعت الحرب في الإسلام من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، فإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ لقد أنـاط بنا الله ﷻ مهمة إحقاق الحق في العالم. لذا، علينا أن نفهم أن احتلال مثل هذا الموقع هو هدف وجودنا، وأن نفهم هذا ونحاول الوصول إليه وتحقيقـه، وإلا فإن الظلم سوف يستمر.

٣. حرية الدعوة

إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فإن الإسلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينـها. يرجـى الانتباه هنا رجاء.. نحن لا نقول بأن الحرب تكون مـن أجـل نـشر الحـق والحقيقة، بل نقول إن تمت الحيلولة دون حرية نشر الحق والحقيقة عند ذلـك يتم إعلان الحرب. فإن كانت لك جيوش لنشر رسالة الإسلام في أرجاء الدنيا كلها، فإن رجال الإرشاد عندك سيقومون بإيصال رسالة الإسلام إلى كل فرد. فإن قام الآخرون بالحيلولة دون هذا، عند ذلك يجب عليك رفع هذه الحوائـل والعوائق، ذلك لأنهم يحولون دون سلوك الآخرين طريق الجنة بإرادتهم الحـرة. لذا، تقع عليك وظيفة المحافظة على حرية التفكر وإزالة الموانع وكل أشـكال المقاومة ضد هذه الحرية. وبنسبة نجاحك في تأمين هذه الحرية تكـون نـسبة نجاحك في نشر دينك.

٤. أسس إنسانية

فإذا ما قمت بهذه الحرب للحفاظ على الحرية عليك ألاّ تجـرح الكرامـة الإنسانية والشرف الإنساني وألاّ تتعرض للأطفال وللنساء ولا للمعابد ولا للرهبان أو للذين نذروا أنفسهم للعبادة والطاعة، وألاّ تتعرض لغير المحاربين. ومعلوم لدى الجميع كيف أن الوضع الحالي في هذا المجال لم يصل بعد إلى هذا المستوى، بل هو تحته بكثير. ولا أدري هل يكفي قولنا "تحته بكثير" في وصف من أسقطوا القنابل النووية على رؤوس المدن الآهلة بالسكان؟ لا أظن هذا.. أجل، فبالأمس القريب فجروا القنابل النووية فوق مدينة "هيروشيما (Hiroshima)" و"ناغازاكي (Nagasaki)" فقتلوا في كل منها أكثر من ثمانين ألفاً من السكان المدنيين وخلّفوا عشرات الآلاف من المصابين والمعوقين والمشوهين. هذا هو ما عمله مدعو المدنية الحالية.

ثم انظروا إلينا.. كان رسول الله ﷺ وكل خليفة يوصي القائد الذي يرسله للقتال بأن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة وألاّ يتعرضوا للرهبان الذين نذروا أنفسهم للعبادة، وألاّ يهدموا معبداً ولا يقطعوا شجرة وألا يبذروا الثروات.[1]

ولا أدري أمن الممكن للذين فجروا القنابل بكل وحشية على رؤوس المدنيين الآمنين أن يراعوا هذه الوصايا وأن يطبقوها؟ إن الحسرة تملأ قلب الإنسان وهو يشاهد الفراغ الكبير الحاصل في التوازن الدولي نتيجة لعدم وجود الناس المؤمنين ضمن هذا التوازن، ولو كنا نحن إحدى القوى الكبرى لما كان

---

(١) **أبو داود**، الجهاد، ٨٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣٠٠

هناك كل هذه المظالم وكل هذه الآلام. وأنا أسألكم الآن ألا تبرر هذه النتيجة وحدها الجهاد وتجعله ضرورياً؟ أجل، إن هذه الغاية تبرر الخروج للجهاد في سبيل الله، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ.

ولأنني قمت بتحليل هذا الموضوع العميق والواسع في كتاب سابق، فإنني أكتفي هنا بهذا القدر وأحيل القراء إلى ذلك الكتاب.[١]

لم يقم الرسول ﷺ طوال العهد المكي بأي مقاومة مادية وبأي نضال مادي، إذ كان ينصح من حواليه على الدوام بالتزام الهدوء والسكينة وبالصبر والثبات. واكتفى فقط باستعمال دساتير القرآن الماسية، وصرف جهوده طوال ثلاثة عشر عاماً في مخاطبة القلوب وأسر النفوس. أجل، فطوال ثلاث عشرة سنة حصر جهوده كلها في التبليغ بمنطقه وبكلامه وبخطابه الساحر المبارك الذي يقلب الفحم ماساً والتراب ذهباً. فلم يقابل الأذى بالأذى ولا السباب بالسباب، بل خاض أودية الآلام والأذى بصبر لا ينفد. كان المؤمنون يعذبون أمام عينيه ويقتلون، فكان يعتصم بالصبر ويتحمل هذه الآلام إضافة إلى تحمل آلامه الخاصة. فمثلاً عندما كان يمر بآل ياسر والمشركون يصبون عليهم ألوان العذاب كان يقول لهم مواسياً: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.»[٢]

كان هذا مبلغ صبره وتحمله، ومع ذلك فلم يكن لغيظ الكفار وحقدهم نهاية وحداً. فما كان أمام رسول الله ﷺ سوى التخطيط لإبعاد المسلمين عن

---

(١) هو «الجهاد أو إعلاء كلمة الله» ولم يُترجم بعد.

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٤٢/١؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٩٣/٩

مكة وإصدار الأمر إليهم بالهجرة ومفارقة بيوتهم التي ترعرعوا وعاشوا فيها ردحاً من الزمن بكل أمن، ومفارقة أحبائهم من الأولاد والأهل والأقرباء.

وهكذا بدأ المسلمون الأوائل بالهجرة.. وكان عمر ﷺ ضمن هؤلاء، ولكن هجرته كانت هجرة أليمة، إذ لم يكن معه لا أولاده ولا زوجته.. كان يهاجر وحيداً،[1] إذ كان هذا هو الخيار الوحيد لديه. وعندما هاجر أبو بكر ﷺ لم يصحب معه ابنته عائشة ﷺا -الذي كان يخاطبها بعد زواجها من رسول الله ﷺ بـ"يا أمنا" مع أنها كانت صبية يافعة آنذاك- إذن، أين كانت؟ لا ندري، ذلك لأن الهجرة كانت تتحقق بهذه الصورة، و لم يكن هناك خيار آخر.

أجل، كان الجميع يتركون أوطانهم وبيوتهم ويضطرون للهجرة. وفي أحد الأيام مر عُتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عُتبة بن ربيعة تخفِق أبوابها يَبابا، ليس فيها ساكن. فلما رآها كذالك تنفّس الصُعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستُدركها النَكْباء والحوب[2]

ثم قال عُتبة بن ربيعة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها! فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلّ بن قُلّ[3].[4]

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١١٨/٢؛ «**السنن الكبرى**» للبيهقي ١٣/٩؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٦١/٦

(٢) **الحوب**: التوجع

(٣) **القُلّ**: الواحد

(٤) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١١٤/٢-١١٥

كلا، لم يكن الرسول ﷺ مسؤولاً عن هذا، بل كان وزر هذا يقع على كاهل الظالمين والغدارين الذين أخرجوا هؤلاء من مساكنهم ومن بيوتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها وسرى ظلمهم حتى إلى حيواناتهم. إذن، فحتى الكافر كان يذرف الدموع على ظلمهم أنفسهم.

اضطر المسلمون إلى قطع طريق يبلغ طوله خمسمائة كم تقريباً دون زاد ولا معين وفي وسط الجو اللاهب للصحراء.. كان قطع هذه المسافة آنذاك يستغرق شهراً كاملاً. وكان عليهم أن يقطعوا هذه المسافة، وليس عليهم في سفرهم وقيامهم ومنامهم سوى ملابسهم التي على أجسادهم. ليس هذا فحسب، إذ ما كان أحد منهم يعرف ماذا يأكل أو يشرب طوال هذا السفر المضني. اضطر هؤلاء المهاجرون -الذين عاشوا في المدينة المنورة فيما بعد بكرامتهم- أن يلجأوا إلى "الأنصار"، وكان هذا عذاباً آخر بالنسبة لهم، غير أن ذلك المجتمع الطاهر من الأنصار فتح صدره مرحباً بهم دون أن تبدر منه كلمة شكوى واحدة.. لماذا؟ لأن النبي ﷺ كان يقول لهم اصبروا وصابروا فالجنة موعدكم. كان الرسول ﷺ يتصرف حسب أوامر الله ﷻ و لم يكن لهواه أو لمشاعره أي دخل في هذا.

ومع كل هذه الآلام التي تجرعها المسلمون حيث هجروا أوطانهم ومساكنهم وأولادهم وعُذّب قسم منهم حتى فارق الحياة لم تكن كل هذه الآلام كافية في نظر المشركين الظالمين، أو كافية لتهدئة حقدهم، إذ اتخذوا قراراً في أحد الأيام أن يضعوا أيديهم على أموال المسلمين وأملاكهم وأراضيهم ويقسموها فيما بينهم إلى درجة أن أسامة بن زيد سأل رسول الله ﷺ عندما

دخل مكة منتصراً بعد ثماني سنوات: يا رسول الله، أين تنـــزل غداً؟ فأجابـــه الرسول ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منـــزلاً؟.»[1]

أي أنهم لم يتركوا لرسول الله ﷺ بيتاً يستطيع أن يسكن فيه ويجـــد فيـــه راحته. كان عقيل أكبر أولاد أبي طالب، وعادى الرسول ﷺ حتى يوم إسلامه الذي تأخر، ووضع يده على أملاك الرسول ﷺ وكأنه وارثه، فقد كان شعور الوفاء عنده ضعيفاً. كما تم تقسيم أملاك الجميع بعد الهجرة.

وقد انتهز المنافق ابن أبيّ ما جرى في مكة من هذا الأمر فجاء إلى المدينة وأخذ يصيح في سوقها: يا معشر المسلمين! أنتم جالسون هنا وأموالكم في مكة نهـــب، يتقاسمون أموالكم في الأسواق، سيأتي يوم لا تملكون لا هنا ولا هناك شيئاً.

كان هذا ظلماً من نوع آخر.[2] وكأن كل هذا لم يكن كافياً، لذا نرى أن قافلة للمشركين تحمل أموال المسلمين تتوجه إلى الشام وتمر بالقرب من المدينة عن قصد وكأنها تقول للمسلمين "انظروا وموتوا من الغيظ." و لم يكتفوا بهـــذا بل ساقوا أمامهم إبل وأغنام المسلمين. هكذا كانت طبيعة النهب عند الكفار. والحقيقة أن ما جرى ويجري في عالمنا اليوم لا يقل عن هذا، لذا نرى الـــشاعر محمد عاكف[3] يقول:

يقولون إن التاريخ يكرر نفسه   أكان التاريخ يكرر نفسه لو اعتبرنا به؟

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٨٠؛ **مسلم**، الحج، ٤٣٩؛ **أبو داود**، الفرائض، ١٠؛ «**فتح الباري**» لابن حجر ٥٢٨/٣

(٢) سنتناول هذا الجانب فيما بعد عند تناول الحكم في سيرة الرسول ﷺ.

(٣) **محمد عاكف أرسوي** (١٨٧٣-١٩٣٦) شاعر تركي، صاحب النشيد الوطني التركي.

فها هم المؤمنون يتعرضون الآن لمختلف أنواع الظلـــم والقهـــر، والـــذين يساندوهم يتعرضون أيضا لمختلف أنواع المضايقات والمحن بل يحرمـــون مـــن أوطاهم ومساكنهم بل حتى من حقهم في الحياة.

والآن اسمحوا لي بأن أسأل مرة أخرى: لو كنتم في مكاهم فمـــاذا كنـــتم صانعين؟ ولا تنسوا أن آلافاً من الصحابة كانوا مشبعين بالإحـــساس نفـــسه ونفوسهم مجروحة، ففي كل يوم كانوا يتلقون طعنة مسددة إلـــيهم. ولـــو أن السماء أطالت المهلة و لم تسمح لهم برد العدوان لأحسوا بالانكسار في قلوبهم، ولكن الرحمة الإلهية هلّت وتكلمت وأسرعت إلى نجدهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْـــرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

أجل، لقد تعرضوا لمختلف أصناف الظلم، بل حرموا حتى من حق الحياة، والآن أعطي لهؤلاء الذين لوحقوا وعُذّبوا وقُتلوا.. أعطي لهم حق الدفاع عـــن أنفسهم وحق محاسبة الأعداء. وكان مناط الحكم أهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، أي أهم تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاهم وأطفالهم حيث وقعوا في الأسر وفي الظلم، فقد كان هناك من قضى ٧-٨ سنوات وهم مقيدون بالسلاسل. إذن، فقد صدر أخيراً الإذن بالقتـــال لحفظ حقوق هؤلاء المظلومين والمغدورين الذين أصاهم ظلم كـــبير وحيـــف شديد، وفي الوقت نفسه فقد كان الرسول ﷺ يؤمر بالجهاد.

لم يكن الإسلام دين سيف ودماء كما ادعى بعض المنـــافقين والجـــاهلين. صحيح أن الرسول ﷺ استعمل السيف، فقد أخبر الأنبياء بصفته هذه من قبل،

فالسيد المسيح عليه السلام عندما يتكلم عنه يقول: "صاحب التاج والمعراج واللواء والقضيب"،[1] فعندما يستلزم الأمر سيقاتل من يستحق القتال. ويقول أيضا: "معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك."[2]

ذلك لأن راياهم ستخفق في أرجاء المعمورة كلها وسينضوى تحتها الكثيرون وسيناضلون من أجل الحق وفي سبيله. أجل، إن هذا الروح المبارك الذي تسرب حتى إلى رايتكم وعَلَمكم، وهذا المعنى المقدس تبلور في أيديهم في ذلك العهد، فكان مشعلة أضاءت أرجاء الأرض.

تحت هذه الظروف أمر رسول الله ﷺ بالجهاد والنضال ضد أعدائه. كأنه كان يقول لمعاصريه المعاندين: "ليس بوسعكم منع حرية الفكر، ولن تستطيعوا سد الطرق المؤدية إلى الإنسانية." ونحن لا نزال نصفق للثورة الفرنسية، ونعدها باباً مفتوحاً للحرية مع أنها حفلت بآلاف من مشاهد القتل والوحشية وذبحت آلاف الأشخاص بسكين المقصلة، وبدا وكأن الثورة تأكل نفسها إلى درجة أن "روبسبيار" (Robespierre) عندما أرسل "دانتون" (Danton) إلى المقصلة سأله: "ما آخر أمنيتك؟" فأجابه "دانتون": "ليست لدي أمنية، لأن رأسك ورأسي سيكونان معاً في سلة المقصلة."

هذا هو الوجه الحقيقي للثورة التي قيل إنها فتحت أبواب الحرية، وهذه هي وحشيتها وبربريتها.. لم يتخلص أحد من وحشيتها.. قتلت الملك أولاً ثم أنصاره ثم الآخرين.

---

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض ٢٣٤/١

(٢) «**الشفاء**» للقاضي عياض ٢٣٥/١

بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرناً بتمزيق حجب الظلام وبإزالة الاستبداد والظلم وبتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لايمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين. فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليك باستعمالها. ولكننا لا نستطيع ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول ﷺ عندما جاء أوان استعمال القوة والظروف المناسبة له استعمل القوة بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان. كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية".

ليلعن الله مثل هذه النظم، ولتنخسف إلى أسفل السافلين! وهي قد خسفت فعلاً إلى أسفل سافلين لأنها مغايرة لفطرة الإنسان. وكل نظام غير طبيعي لا يراعي الفطرة ولا يستند إلى الحق ولا يعطي الحرية للأفكار وللمبادئ التي تمثل الحق فإن مصيره إلى الزوال.

أجل، لقد قام الرسول ﷺ بمناوشة أعدائه طوال عشرة أعوام لكي يضع أسس حقائق عديدة.. حقائق ملء الأرض. وفي جميع حروبه هذه لا يعطي سوى مائة ونيف من الشهداء فقط من الجانب الإسلامي. هذا من الجانب

الإسلامي، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فلا أعلمه. بينما كان عدد الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً حسبما ذكرنا سابقاً. ولا يشمل هذا الرقم الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين ماتوا فيما بعد. لذا، فإن العهد النبوي يُعد عهد احترام إنسانية الإنسان واحترام أفكاره ومشاعره. و لم تصل دعوة "الإنسانية (Humanizm)" إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبداً. ذلك لأن الرسول محمداً ﷺ هو صاحب ذلك العهد. والمؤمن –حسب تعليماته– يقاتل ويحارب، ولكنه لا يسد أبداً أبواب الصلح، ولا يزيف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أي إنسان دون سبب ودون حق، ولا يحتل البلدان الأخرى ولا يمتص خيرات الأمم الأخرى.

٥. السلم هو الأساس في الإسلام

لم يعرف الغرب –لا في الماضي ولا في الحاضر– القيم الإلهية، لذا قام باحتلال البلدان ووضع يده على ثروات تلك البلدان ما ظهر منها وما بطن، واستعبد أهاليها وسكانها وشكل المستعمرات. حارب في هذا السبيل، وأراق الدماء في سبيل هذه الغاية. لقد كان هذا هو الهدف الحقيقي لحروب البلقان وللحرب العالمية الأولى والثانية ولحرب واحتلال بلدان الخليج والصومال. أما الحرب في الإسلام فتكون من أجل غاية سامية ومن أجل حرية الفكر والاعتقاد ومن أجل فتح الطرق المؤدية إلى القيم الإنسانية. ومع ذلك فيجب ألاّ يهمل الإتجاه نحو السلم كلما استوجب الأمر، ذلك لأن السلم هو الأساس وهو الأصل، أما الحرب فأمر استثنائي. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى

اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

هذه الآيات وأمثالها تدعو المسلمين إلى السلم وإلى الصلح، فإن كانوا في الحرب فهي تدعوهم إلى الاعتدال وإلى الاستقامة. أما النظم الأخرى فالحرب عندها ميدان وحشية، بل إن فترات الصلح عندها لا تختلف كثيراً عن فترة الحرب. ومهما اختلفت أسماء هذه النظم فهي ليست سوى نظم لتضليل البشرية، ونظم شيطانية همها إشعال الفتن والاضطرابات. فالشيطان يزين هذه النظم ويجعلها في صور براقة لخداع أنصارها، ذلك لأنه عدو مبين للإنسان، لذا فسيحاول إبعادك عن ذاتك وعن نظرتك لتاريخك ولفلسفة هذا التاريخ ومعناه.

أجل، يجب أن يكون السلم والصلح نصب عين المؤمن حتى وهو يقاتل. وقد يقاتل المؤمن المؤمن، وهنا أيضا لابد من الصلح: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

فإن اشتبكت طائفتان من المؤمنين وتعرض الوطن وتعرضت الأمة إلى خطر الانشقاق والتمزق، وبدأ الاضطراب الداخلي ينتشر في البلد.. في هذه الحالة يجب محاسبة المقاتلين حتى وإن كانوا مؤمنين، وبذل كل الجهود لتأمين وحدة الإسلام والمسلمين ووحدة الوطن والأمة. هذا هو ما يريده القرآن. ولكن أين نحن من هذا؟ إن ماضينا القريب ليس مما يشرح الصدور.. يُقال "إن اليأس يمنع كل كمال" والذي يقع في اليأس لا يستطيع أن ينتصب واقفاً على قدميه، وهو

مستنقع يغرق من يقع فيه. ولكن من الصعب أن يكون الإنسان متفائلاً مع وجود كل أسباب الفرقة هذه. أجل، إن المؤمنين هم شهداء الله في الأرض، وعنصر توازن بين الأمم، وضمان للتناسق العام، لذا فلهم حق التدخل في كل شيء ولدى الجميع في سبيل تأمين الحق والعدالة. فإن اضطربت الأمور في بلدنا أو في بلد آخر إلى درجة استدعت التدخل وكنا نملك القدرة على التدخل، فإن من واجبنا التدخل لتأمين الهدوء والاستقرار. فإن تقرر التدخل وتقررت الحرب تم التوكل على الله والسير في الطريق الذي نعرف أنه الطريق الحق، إذ ألا يقول الله تبارك وتعالى حول النهاية الحزينة لمعركة أُحد ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

أجل، إن كانت الملابسات والظروف تشدك نحو الجهاد المادي، أي إن حيل بينك وبين حريتك في نشر دينك، أو إن لم يكن هناك من يوقف الظلم الواقع على المظلومين وعلى المغدورين، ولم يكن هناك من يُنهي أنينهم وشكاواهم، أو لو كان هناك من يستعمل القوة لمنعك من نشر الحق، أو لو اعتدوا على حرمة وطنك وهددوا حياتك.. عند ذلك آن لك أن تبرز لميدان القتال وأن تشمر عن ساعديك للقتال وللجهاد.

ب- التهيؤ الجيد

عندما تستوجب الظروف الخروج إلى ساحة القتال، يكون من الواجب التهيؤ لذلك الأمر على أفضل وجه. وأول ما يجب الاهتمام به هو القوة المعنوية. والمتخصصون في العلم العسكري يعلمون جيداً الدور المهم للقوة المعنوية في الحروب، لذا يبدون اهتماماً فائقاً بها. ولا شك أن الإيمان هو منبع

ومستند القوة المعنوية، ولا يمكن أن تتوقع الشيء الكثير في ميدان القتال من امرئ لا يملك نصيباً من الإيمان في قلبه.

١. القوة المعنوية

إليكم بعض الآيات التي تقوي الروح المعنوية للمؤمن وتهيئه للقتال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ٧٤)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُم مِئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥)، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

والمبدأ الذي يترشح من هذه الآيات هو أن "الحق يعلو ولا يعلى عليه." هذا هو الشعور الذي يملأ قلب المؤمن وهو مقبل على القتال، إذ يكون قد تحصن بقلعة من الإيمان لا يمكن تخطي أسوارها. هكذا كان الرسول ﷺ ينفث مثل هذا الإيمان ومثل هذا الشعور بالاطمئنان في قلوب جنوده وأبطاله وهو يعدهم ويهيئهم للقتال.

كان هؤلاء هم الأبطال الذين يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، ويفتشون عنه لأنهم يعلمون أنه المفتاح السحري الذي يفتح لهم أبواب الجنة، ويتساءلون "تُرى أين سأتوضأ بدم الشهادة وألقى ربي؟" يتساءلون هكذا

ويفتشون عن الشهادة في ميادين القتال.. كان قلب كل بطل من هؤلاء الأبطال يفور بهذا الشعور.. إذن، فهل من الممكن أن يقف أحد أمام أمثال هؤلاء الذين يستخفون بالموت؟ لقد كان الأعداء يرون هذا فلا يملكون سوى الفرار من أمامهم.

٢. تكوين قوة رادعة

والناحية المهمة الثانية هي عزم الرسول ﷺ على جعل أمته قوة يُرهَب جانبها في التوازن بين الدول، وقوة يحسب حسابها، ذلك لأنك إن لم تصل إلى مثل هذه القوة لم يبال بك الآخرون، بل ربما تدخلوا في شؤونك وسخروا منك، واتخذوا القرارات دون أن يحسبوا حساباً لك، بل ربما اتخذوا قرارات رغماً عنك وخارج إرادتك وأجبروك على تطبيق هذه القرارات. ويرجع سبب هذا إلى عدم تملكك قوة وثقلاً كافياً في التوازن الدولي أمام القوى الكبرى، بينما يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤١).

أي لا يوجد هناك سبيل لكي يكون الكافر أعلى من المؤمن. أي يجب ألا يحكم أي مجتمع نصراني أو يهودي أو وثني أو رأسمالي أو ملحد أو شيوعي مجتمع المسلمين. وفي الحقيقة لم يستطيعوا حكم المسلمين الحقيقيين، لأن الله تعالى لن يسمح بذلك. فكأنه يقول لقد سددت أمامهم هذا السبيل. والمؤمن لا يستطيع العيش تحت تحكم وتعنت الآخرين، وهو لا يستطيع العيش مستنداً إلى غير الله تعالى، إذ لا يليق به ذلك، ولا يرضى أن يكون في يد الظلم كالفأرة في يدي القط.

أجل، إن المؤمنين سواء في مستوى الفرد أو في مستوى المجتمع أو في

مستوى الأمة هم أصحاب مزايا عالية، ويجب أن يبقوا في الأعالي. وقد رسم الرسول ﷺ لأمته هذا الهدف وكأنه يقول لهم ليس لعلوكم حد معين. فإن لم تكونوا أصحاب قوة في الأرض تم سحقكم، أو كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو داود وأحمد بن حنبل: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها.»[1] أي يتداعون عليكم وعلى النعم التي أنعمها الله تعالى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أو تستطيعون أن تقولوا بالتعبير الحالي إنهم لا يتداعون عليكم في كركوك وفي داغستان وفي سورية وفي ليبيا وفي مصر على البترول وعلى الثروات الأخرى من كل جانب.

لقد أصبحت نعمنا محط أنظار الأجانب وطمعهم، حتى لو أن دولة فتحت مدرسة في مكان ما، أثار هذا شهية الآخرين ودفعتهم إلى فتح مدارس لهم أيضاً. وهم يقولون "علينا أن نفتح مدارسنا هناك باسم مصلحتنا، فمن يدري ماذا سيحصل" إلى درجة أنه كانت هناك ثلاثة مدارس أجنبية مختلفة حتى في أصغر مدينة تقوم بالتدريس باللغات الأجنبية، وكانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدرسة أجنبية في تركيا هي بمثابة عيون ومراصد للجهات الأجنبية وبمثابة رواد للاستعمار الثقافي. وإلا فماذا كانوا يعملون في تركيا وماذا كانت غايتهم؟ ألم نكن قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا؟ وماذا كان السبب الحقيقي لوجود هذه الفيروسات في دمنا وانتشارهم في عروقنا وإعلانهم النفير العام الثقافي ضدنا وتوغلهم في مفاصل إدارتنا؟ لم يكن ذلك حبا في سواد عيوننا.. كلا، بل لكي

(١) **أبو داود**، الملاحم، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٧٨

يقرضوا بأنيابهم عالمنا الروحي ويبردوه بمباردهم الحادة، وفي كثير من الأحيـــان نجحوا في هذا. فقد اتفقوا ضدنا في أثناء حرب البلقان ورمونا عن قوس واحد. وفتحوا أبواب البلاء علينا في الحرب العالمية الأولى، وحاولوا أن يقحمونـــا في أتون الحرب العالمية الثانية، ولكن الله سلم هذه الأمة وأوصلها إلى هذا العهد. لماذا كانت كل هذه المصائب؟ ذلك لأننا كأمة فرطنا في وصايا الرســـول ﷺ و لم نصل إلى المستوى الذي أرادنا أن نصل إليه، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

لقد فهم المسلمون الأوائل هذا الأمر جيداً. يقول مولانا الشِبْلي وهو يحلل حياة عمر بن الخطاب ﷺ بأنه بينما كانت الحروب قائمة مع الأعداء في جميع الجبهات كان هناك عدد كبير من الخيول غير المشتركة في الحرب إضافة إلى الأعداد الكبيرة المشتركة في الحرب من الخيول والجمال. فمثلاً كان هناك أربعون ألفاً من الخيول الجيدة في مزرعة خارج المدينة المنورة لم تشترك بعد في أي حرب.

كما كان هناك أربعون ألفاً من الخيول قرب سورية كاحتياط. هذه الخيول لم تكن تشترك في الحرب، بل كانت تربى من أجل الطـــوارئ وكاحتيـــاطي فقط.[1] إذن، فقد هيأوا مثل هذا التهيؤ ضمن الإمكانيات الـــتي أنعمهـــا الله عليهم آنذاك، والحقيقة أن من الممكن فهم وجوب اتخاذ أمثال تلـــك الحيطـــة والتهيؤ من كلمة "الرباط" الواردة في الآية الكريمة. ذلك لأن الرباط في معنـــاه العام هو وضع كل العناصر الضرورية من حيوان أو إنسان أو أدوات ورصدها ووقفها للحفاظ على أمن الأمة الإسلامية. والقرآن يشير إلينا بالوصول إلى هذا

(١) «**عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة**» لشِبْلي النعماني ١٤٤/٢

الهدف وكأنه يقول: احفظوا دينكم ولغتكم وشرفكم وعرضكم وكـــرامتكم ووطنكم وكل مقدساتكم من الأعداء الذين ينظرون إليها نظرة خيانة وطمع. وأعدوا لهم كل ما يلزمكم من القوة لتحقيق هذا، ولا تقصروا في هذا الأمـــر أبداً، ولا تعطوا أعداءكم أي فرصة أو مجال، لا تعطوا أعداءكم مثل هذا المجال لكي لا تكونوا لعبة بأيدي الآخرين.

٣. استعمال السيف حين الضرورة

كما يوصي القرآن الكريم باستعمال القوة لإسناد الحق والحكمة في التوازن العالمي، فإن محمداً ﷺ رسول جاء بشرعة الحرب، فقد جاءت صفته في الإنجيل بأنه "صاحب القضيب"،[1] فهو يقوم بنشر الحق، إلا أنـــه يـــستعمل القـــوة ويستعمل السيف إن تم الوقوف في وجه نشر الحق والحقيقة، فهـــو رســـول السيف أيضاً. ولأنه رسول السيف أيضا فقد علمه الله تعالى في القرآن تكتيك الحرب أيضاً، فالقرآن يخاطبه في إحدى الآيات: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصفّ: ٤).

أي لتكن صفوفكم متراصة وملتحمة بعضها ببعض ومرتبطة بقوة. بحيث لا يستطيع العدو النفاذ من خلالها. وقد كان هذا التراص أفضل ترتيب للصفوف في القتال آنذاك، ذلك لأنها كانت تُرهب العدو وتلقي في قلوبهم الرعب، وقد استعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في حروبه وانتصر.

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الأمر –أي القتال في

---

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض، ١/٢٣٤–٢٣٥

سبيل الحق– اهتماماً كبيراً، بحيث أنه ما إن أبدى بعضهم بعض التثاقل وبعض الكسل في هذا الأمر حتى جاء الزجر الشديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِل قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٣٨-٤٠).

أجل، فكما أنه نصر رسوله في وقت لم تقوموا أنتم بنصرته، وعاونه في وجه جميع القوى الشريرة، فكذلك سينصركم على قدر إخلاصكم وبقدر صدقكم.

وفي ضوء نور القرآن الكريم كان الرسول ﷺ يرشد على الدوام أمته إلى هذا الطريق. لذا، فما كان من المتوقع أن تُغلب مثل هذه الجماعة ولا أن تدوسها الأقدام. و لم تُغلب في الحقيقة و لم تُدس، إذن، يجب على المسلمين لكي يكونوا منظمي التوازن في العالم أن يكونوا متهيئين على الدوام وعلى أهبة الاستعداد في كل آن، وأن يكونوا في جبهة القتال متى ما دعا الأمر إلى ذلك. وأي تصرف مضاد لهذا يعد ذنباً وإثماً يجب الاستغفار منه والتوبة عنه. وهاكم المثال من العهد النبوي: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

ج- **شعور الطاعة**

الطاعة مهمة جداً، والأهم منها هو تنمية شعور الطاعة في مثل ذلك المجتمع البدوي. أجل، ففي ذلك المجتمع الجاهلي لم يكن أحد يصيخ سمعه لأحد ولا يعيره اهتماماً ولا التفاتاً. ولكن الرسول ﷺ تدرج معهم وعلمهم الطاعة شيئاً فشيئاً إلى درجة أنه عندما جعل شاباً يافعاً بعمر ثماني عشرة سنة قائداً في حملة يوجد فيها أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وغيرهم من كبار الصحابة لم يصدر أي اعتراض عدا اعتراض شخص أو شخصين.[1] إذ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٦)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

لقد استقر مفهوم الطاعة بين الصحابة إلى درجة أن أبا بكر رضي الله عنه مع كونه خليفة للمسلمين طلب من القائد الشاب أسامة السماح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ليكون بجانبه ليستشيره ويكون وزيراً له.[2]

لماذا كان الخليفة يستأذن؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ عين أسامة قائداً، لذا يجب إطاعته. وقد ركز الرسول ﷺ على موضوع الطاعة حتى وفاته، لأنه يعلم أن عدم الطاعة سيفتح الباب على الاضطرابات وعلى الفتن. ونجح في ذلك نجاحاً لم يكن من نصيب أحد قط إلى درجة أن عبد الله بن حُذافة السهمي –

(١) **البخاري**، الأحكام، ٣٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٦٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٦/٦

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٦/٦؛ «**كنز العمال**» للهندي ٥٧٩/١٠

وكان على رأس حملة من المسلمين– عندما أمر أتباعه أن يرموا أنفسهم في نار أوقدها حاول بعضهم إلقاء نفسه فعلاً في النار. بينما كان هذا انتحاراً، لذا قال بعضهم: "إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟" وقال الرسول ﷺ: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً. إنما الطاعة في المعروف.»[1]

أجل، كانت الطاعة عميقة إلى هذا المستوى. كانت ضــربات الــسيوف تنهال على الرؤوس فلا يفكر أحد بالتراجع لأن الأمر بالتراجع لم يصدر بعــد من القائد، ولو كان العكس وارداً وتصرف كل مقاتل حسب رأيه لما بقي أثر للوحدة وللتضامن، فيكون الرأس قدماً وتكون القدم رأساً. والقــرآن الكــريم يقول: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذهَبَ رِيحُكُمْ وَاصبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الــصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

د– النبي العسكري والخطط المختلفة

كان الرسول ﷺ كأي عسكري جيد يغير خططه على الدوام. والخطة التي يستعملها مرة لا يطبقها مرة أخرى في العادة. لذا، كان خصومه يتخبطــون أمامه. وكان أسلوب "الكر والفر" الذي يستعمل في أيامنا بكثرة، ولكنــه لم يكن معروفاً آنذاك، أي الهجوم ثم الانسحاب، ثم الهجوم من موضع لا يتوقعه العدو قد أوقع الاضطراب بين القرشيين.

هكذا استقبل رسول الله أعداءه في بدر، و لم يدر المشركون ماذا أصــابهم، لذا فقد تضعضعوا من الوهلة الأولى رغم كل ما هيأوا للحرب مــن مقــاتلين

---

(١) **البخاري**، الأحكام، ٤؛ **مسلم**، الإمارة، ٣٩؛ **ابن ماجه**، الجهاد، ٤٠

وخيول وجمال، بينما لم يكن المسلمون يملكون –حسب علمنا– غير فرسين أو ثلاثة، و لم يكن نصيب كل مسلم من أدوات القتال يزيد عن رمـــح وبـــضعة سهام.[1] ذلك لأنهم أتوا إلى بدر بنية أخرى وقصد آخر.[2] ولكـــن الأعـــداء عندما جوبهوا بشيء لم يعتادوه حتى ذلك اليوم اضطربوا وذعـــروا.. وبـــدأت الأسباب الموجودة في القدر الإلهي تطاردهم وتكيل لهـــم الـــصفعات جـــزاء شركهم بالله.

وتكتيك آخر.. فهناك الصلاة الجماعية في جبهة القتال، وهي تنشر روح الاستخفاف بالأعداء، وروح الثقة والاطمئنان للمؤمنين، ولكن كـــان مـــن الممكن أن يعدها الكفار فرصة. ولكن الوضع لم يكن على الإطلاق كمـــا طمع الأعداء، ذلك لأن القرآن الكريم كان يعطي التعليمات التالية حول هذه الصلاة: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَـــةٌ مِـــنْهُم مَعَـــكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْـــلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَـــجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَـــأْتِ طَآئِفَـــةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْـــلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَـــاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ أَوْ كُنتُم مَرْضَـــى أَن تَـــضَعُوا أَسْـــلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَـــدَّ لِلْكَافِرِيـــنَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (النساء: ١٠٢).

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك. ولتقف جماعـــة

---

(١) حول معركة بدر انظر إلى «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٦٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٣١٨-٣٣١

(٢) **البخاري**، المغازي، ٣؛ **مسلم**، التوبة، ٥٣

أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتـــأتي الثانيـــة وتصلي خلف رسول الله.

أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يـــرون عجبـــاً.. يـــرون المسلمين يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا هم يرون الفئة الأخرى ويرون المسلمين ينتقلون من صف الصلاة إلى صـــف الحراسة ومن صف الحراسة إلى صف الصلاة. إذن، فالرسول ﷺ كان –بـــأمر من ربه تعالى– يخطط للقتال وللدفاع حتى وهو في الصلاة.[١]

١. التصرف بتكتم

قال "هتلر (Hitler)" وهو يصف سلوكه العسكري: "لقد كنت أول مـــن اكتشف التكتم في الأمور." غير أن الرسول ﷺ بصورته المثالية، إذ لم يكـــن في وسع أحد أن يعرف خططه سواء في الهجـــوم أو في الـــدفاع ولا أن يعـــرف استراتيجيته وأهدافه، إذ لم يكن يصرح بوجهته إلا بعد أن يقطع شوطاً في حملته.

وعندما توجه إلى مكة لم يعرف أحد لا من المسلمين ولا من المشركين هدفه بشكل واضح وجلي إلا بعد أن لم تبق بينه وبين مكة إلا مسافة قصيرة. وعنـــدما أشعل في عشرة آلاف موضع عشرة آلاف شعلة دخل الرعب إلى قلوب قـــريش، ولكن الأمر كان متأخراً جداً بالنسبة إليهم، إذ كان المسلمون قريبين منـــهم إلى درجة لم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء.[٢]

---

(١) **البخاري**، صلاة الخوف، ١–٣؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٣٠٥–٣١٢؛ **أبو داود**، السفر، ١٢

(٢) **البخاري**، المغازي، ٤٨؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٩/٤، ٤٢

٢. شبكة الاستخبارات

ووضع شبكة الاستخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار كانت تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيمّ وتحلّل حالاً. و لم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه. وقد ارتكب حاطب بن أبي بلتعة خطأً، فأرسل إلى أهل مكة رسولاً يخبرهم بمقدم رسول الله ﷺ إليهم، ولكن رسوله –وكانت امرأة– قبض عليها في الطريق. و لم يؤاخذ حاطب من قبل أحد، لاسيما وأن الموضوع تم حله. وقد اعترف حاطب رضي الله عنه بخطئه هذا. صحيح أن هذا الصحابي اشترك في معركة بدر، ولكن بدر منه مع هذا هذه الهفوة التي عفا عنها صاحب من لا هفوة له.[١]

أجل، شكل الرسول ﷺ لحسابه شبكة الاستخبارات، ولكن لم يعط فرصة لأحد أن يحصل على أي خبر من أخباره. هكذا كانت درجة التكتم عند الرسول ﷺ.[٢] ومهما قيل عن التكتم فالرسول ﷺ هو الذي علمه ربه هذا الأمر، ثم تعلمت منه الإنسانية هذا المبدأ قبل أربعة عشر قرناً. وكان يستطيع أن يوصل الأخبار إلى موضع على مسافة تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة من جمل يعدو بأقصى سرعته، ولكنه كان يوصل الأخبار إليه بوقت أقصر، ذلك لأنه بينما كان الرسول ﷺ في المدينة فإن جيوشه كانت على مشارف الشام. وكان قطع هذه المسافة الطويلة تحتاج إلى عشرة أيام من السفر المتواصل، ولكن رسل النبي ﷺ كانوا يقطعون هذه المسافة في ثمانية أيام فقط، وهذا يدل على مدى

(١) **البخاري**، الجهاد والسير، ١٤١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٦١؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٨

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٩/٤-٤٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٢/٤-٣٣٥

قوة شبكة المخابرة التي أرسى أسسها الرسول ﷺ. ولا عجب في هذا فقد كان يطبق ما يرشده إليه الله ﷻ. فالحامل الأول للخبر أو الرسول الأول كان يسرع بجواده يوماً كاملاً وبعد أن يقطع مسافة يوم كامل ينزل عن جواده ويرتاح بعد أن يعطي الخبر إلى الرسول الثاني الذي ينطلق بجواده يوماً كاملاً ثم يعطي الرسالة أو الخبر إلى الرسول الثالث... وهكذا حتى تصل الرسالة أو يصل الخبر إلى موضعه، وهكذا يتم نقل الأخبار والرسائل بوساطة رسل مرتاحين وبخيول مرتاحة في أقصر وقت، ولم يكن هناك حل آخر، إذ أكان من الممكن أن تنتقل الأخبار ما بين مكة إلى فيزان بغير هذه الطريقة؟

كان صاحب هذه الفطنة العظيمة يرسم لوحات ملونة تسر لها الأفئدة في كل ناحية من نواحي الحياة تحت تلك الظروف وتلك الشروط في ذلك العهد، فيضطرنا إلى الاعتراف بنبوته وبرسالته. وإلى جانب كل هذا فقد كان كأي عسكري ممتاز يهرع إلى الصلح وإلى السلم متى ما اقتضى الأمر ذلك. وقد تطرقنا إلى هذا فيما سبق باختصار، ونضيف هنا فنقول إن القرآن الكريم كان يقول له: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال: ٦١).

أي خذ بالأسباب ولكن لا تقصر في التوكل على الله، ذلك لأن التوكل دون القيام برعاية الأسباب إنما هو عنوان للكسل ولعدم الإدراك وعدم الإحساس، بينما التوكل بعد رعاية الأسباب يُعد عنواناً للانقياد وللتسليم والارتباط مع الله تعالى، ومع شريعته الفطرية وآيات النظام الكوني ومبادئه، وإدراكاً ورعاية لها.

٣. مراحل التبليغ

في إحدى مراحل التبليغ أمره الله تعالى بـ: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥). إن الله تعالى يعلم الضالين ويعلم المهتدين، أما أنت فقم بواجبك في الدعوة ولا تتدخل فيما وراء ذلك. كانت هذه الآية تقوم بشحن إيمانه وإيمان جماعته. ثم جاءت مرحلة أخرى أمر فيها الرسول ﷺ بإعلان دعوته وبلهجة حادة إن اقتضى الأمر وبإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء-٢١٤)، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤).

هـ- مقاطع صغيرة من حياته

عندما تم إعلان الإسلام زادت الضغوط وسقط بعض الشهداء أمثال سُميّة وياسر وغيرهما. استشهد البعض نتيجة التعذيب أو التجويع أو من ضربة في صدره بحربة أو بنبل، ثم بدأت الهجرات.. الهجرة إلى الحبشة ثم العودة منها ثم الهجرة إلى المدينة وقبلها عام الحزن بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ووفاة أبي طالب، مما كان يعني بقاء الرسول ﷺ -من الناحية المادية أو الظاهرية- أعزلاً دون حامٍ، والحقيقة أن الله تعالى كان يقطع كل الأسباب الظاهرية وكل الركائز التي كان يستند إليها لكي يتوجه نحو مسبب الأسباب وحده. ذلك لأن من قوانين الفطرة أن التوجه التام نحو مُسبب الأسباب لا يتم في عالم المقربين إلا بعد سقوط كافة الأسباب. إذن، يجب أن تسقط كافة الأسباب وتنهدم ليتم التوجه نحو الله وحده، واستقراء أسرار نور التوحيد بالميل الفطري

وبالاضطرار الجبري لكي يتبلور في وجدانه سر الأحدية.. تماماً كما حـــدث للنبي يونس عليه السلام.. لكي يوصله فيما بعد إلى شاطئ السلامة وينبت له شجرة من يقطين وليريه ما يجب أن يراه من نوره العظيم.

أجل، فعندما أخذ منه أباطالب أخذ منه مستنداً وعوناً، وعندما أخذ منـــه خديجة رضي الله عنها أخذ منه مستنداً وعوناً آخر. ولكي يعطي درساً قيماً إلى الأجيال المقبلة كان يهدم كل الأسباب المادية الظاهرية ويوجهه إلى مـــسبب الأسباب وحده وكأنه يقول له: أنت شخص مرشح لكي تنطـــق باســـم الله فقط، ألا ترى أنني أخذت أباك قبل ولادتك، ثم أمك بعد الولادة ثم جـــدك؟ أجل، لقد أخذت كل من كان يحميك واحداً إثر آخر لكي لا يقتحم خيالك أحد غيري، ابحث عني كل وقت وكل حين، وأقبل عليّ وتوجـــه إلي فقـــط وحاول أن تسمعني وراء كل باب تطرقه في هذا الكون.

صحيح أن هذا الطريق الذي أجبره الله تعالى على سلوكه كان طريقاً صعباً حافلاً بالمشقات إلا أنه لم يكن بالعبء الذي لا يستطيع حمله الرسول المصطفى محمد ﷺ، ذلك لأنه كان بعون من الله تعالى شخصاً قوياً لا يُغلب، قد جعـــل العجز والفقر جناحين له.

من الحوادث الأليمة التي تعرض لها النبي ﷺ، وشاهد فيها مثالاً للجحـــود والرفض ما جرى له في الطائف الذي توجه إليه وهو يأمل أن يلقى فيه بعـــض القلوب الرضية، ولكنه رجع منه والدماء تنـــزف منه من رأسه حتى قدميه، ثم مقابلته لستة أشخاص من يثرب، وفي السنة التي بعدها لاثني عشر شخـــصاً في

العَقَبة، هؤلاء هم أبو الهيثم بن التيهان وأصدقاؤه.[1] بايعوا النبي ﷺ ورجعوا إلى المدينة لكي يرجعوا في السنة القادمة وهم خمسة وسبعون شخصاً –منهم امرأتان– لكي يبايعوا الرسول ﷺ. كانت نسيبة المازنية إحدى المرأتين، وهي المرأة التي سيذكرها التاريخ الإسلامي بكل فخر وتوقير تحت اسم أم عمارة. وكانت الأخرى أسماء بنت عمر.[2] ولم تفارق هاتان المرأتان العظيمتان رسول الله ﷺ لا في سفر ولا في حضر، بل إن أم عمارة شاركت في حروب الردة فقاتلت في معركة اليمامة وبيدها السيف وببطولة كبطولتها في معركة أُحد. وقد استشهد ابنها حبيب في هذا المكان من قِبَلِ مسيلمة الكذاب عندما أرسله إليه رسول الله ﷺ.[3] ثم دعي رسول الله ﷺ إلى المدينة، لقد أصبح القائد على رأس جيشه.

لم يقم حتى ذلك الحين بإيذاء أحد قط لا قولاً ولا فعلاً. بل إنه عندما كان يعطي سكيناً إلى أحد كان يجعل نصله الحاد متوجهاً إلى نفسه والمقبض متوجهاً لذلك الشخص لكي لا يرتعب أو يخاف.[4] أجل، لقد كان يراعي كل هذه الدقة في سلوكه ومعاملاته، لم يكن قد آذى طوال حياته أي شخص. ولكن كانت هناك خفافيش أزعجها انتشار نور القرآن ودعوة القرآن فقامت تحاول منع انتشار هذا النور، لذا كان لابد لـ"صاحب القضيب" أن يستل سيفه في وجه هؤلاء

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٧٠-٧٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/١٨٢-١٨٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٨١-٨٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/١٩٢-١٩٧

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٤١٨؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير، ١/٤٤٣

(٤) وانظر: **أبو داود**، الأدب، ٨٥؛ **الترمذي**، الفتن، ٣-٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٦/٢٥٣-٢٥٤

قائلاً: "يا خفافيش الظلام! لن تستطيعوا بعد الآن حجب النور.. ستعيشون أنتم في الظلام.. إذن، فابتعدوا عن ضوء النهار وابتعدوا عن فرسان النور."

كان زعيماً يختلط بأتباعه وينسجم معهم، وكان قائداً على رأس جيشه. قام بحل المسائل الاجتماعية أول الأمر فآخى بين أصحابه الكرام، وجذب أهل الكتاب إلى صفه ووضع دستور أمان ووطد الصلح معهم، ونشر الثقة والأمن لدى الجميع.

ثم توجه إلى الجيش فكوّن في البداية سرايا صغيرة، ثم بدأ بإرسال السرايا وعيون الإرصاد فيما حواليه. والسرايا التي كان عدد أفرادها يقل عن العشرة كانت وظيفتها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات وإيصالها إلى رسول الله ﷺ.

ثم كانت هناك سرايا أكبر عدداً وكانت مسلحة ومتدربة وعلى أهبة الاستعداد على الدوام، حيث نستطيع أن نطلق عليها اليوم اسم "السرايا الضاربة". كانت هذه السرايا تستقصي المعلومات والأخبار أيضاً، ولكن لا بد لها من خوض المعارك عند اقتضاء الأمر، وقد قاد بنفسه هذه السرايا أربع مرات. وكان عدد أفراد السرية يتجاوز أحياناً مئتي مسلح، وكانت وظيفة مثل هذه السرايا إرهاب العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم.

و- أهداف السرايا

كان المسلمون متهيئين لكافة أنواع النضال والكفاح. وكان المشركون يضطرونهم بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا الكفاح والنضال. كان الوحي قد بدأ بالنزول قبل ثلاث عشرة سنة، وكان داخلاً إلى السنة الرابعة عشرة. وكان

الذين يزعجهم النور يسعون جاهدين لإطفائه فيتعرضون في كل مكان للـدعوة القرآنية، وعندما يتمكنون من القبض على أي مسلم سرعان ما كانوا يقتلونـه. ونحن نذكر اليوم مظالم البلغار ومظالم الروس ومظالم الهنود. نذكر هذه المظـالم ونجد في الأقل من يشجب هذه المظالم ويستنكرها، أما المظالم التي كانت ترتكب آنذاك في حق المسلمين فلم يكن هناك من يستنكرها أو يشجبها أو يرفع صـوته ضدها، فكل تصرف لقريش كان مقبولاً من قبل الآخرين حـتى وإن كـان في الدركات السفلى من الظلم والوحشية. ذلك لأن قريشاً كانت سيدة مكة، لـذا ففي إمكانهم عمل أي شيء يشتهونه. وقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة هـدم هذه الدكتاتورية، لذا هيأ هذه السرايا وبعثها إلى جميع الجهات، وكانت الغايـة من هذه السرايا الضاربة الوصول إلى بعض الأهداف المعينة ومنها:

١. الإشعار بالكيان الإسلامي

أي إشعار الجميع بوجوده وبالكيان الإسلامي، وأن المشركين وإن طـردوا المسلمين عن مكة إلا أنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإسلام. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).

إذن، فرسول الله ﷺ كان يريد أن يظهر لهم أن ظلام الجاهليـة الأولى في تلك الصحراء الموحشة المظلمة لن يستطيع إطفاء نور الله.

٢. إظهار أن الهيمنة للحق

ثم إنه كان يريد أن يبرهن على أن الحكم ليس لمشركي مكة ولقريش فقط، بل إن لممثلي الحق حصة منه ونصيباً، وسيأتي يوم تخضع فيه القوة بكل ما لديها

من أسلحة إلى الحق وتستسلم له، وحينئذٍ ستكون الكلمة في الأرض بيد الحق وحده، ويسود القانون في الأرض.

كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن قريشاً ليست على حق ولكنها كانت تستطيع إحراز الغلبة أحياناً على الحق وبصورة مؤقتة لكونها تملك أسباب القوة في يديها. لذا، كان على رسول الله ﷺ إعلان قوة الحق، فكان تشكيل هــذه السرايا إعلاناً وإظهاراً لهذا لكل الأطراف حواليه، أي إعــلان أن أمثــال أبي سفيان وأبي جهل وعُتبة وشيبة وابن أبي مُعيط والوليد الخ... لا يملكــون أي حق لهم على الإنسانية، بل إنهم على العكس من ذلك اغتصبوا من الإنــسانية حقها واستغلوها.

٣. تهيئة أساس للإرشاد

كان من وظائف هذه السرايا إزالة العقبات من أمام طريق الــدعوة. أجــل، فبفضل هذه السرايا التي كانت تتجول هنا وهناك استطاع أن يمــسك بالنظــام والانتظام في يده، وأن يرسل الدعاة والمبلغين والمرشدين إلى كل مكان، وأن يؤمن تجولهم بين المدن والقرى دون خوف أو وجل، ويهيء لهم جواً هادئاً لكي يقوموا بمهماتهم. لذا، كان الرسول ﷺ يرسل السرايا بشكل مستمر للمنــاطق المحيطــة بالمدينة من أجل هذه الغايات، وبعد الهجرة وحتى اصطدامه بأعدائه في معركة بدر كان قد أرسل سرايا عديدة ضاربة، ففي بضعة أشهر كانت هذه السرايا تظهر في أماكن بعيدة لم يكونوا يقطعونها آنذاك إلا خلال شهر، أو تظهر بمقربة من مكــة وكأنهم أشباح أو ملائكة ظهرت ثم اختفت بسرعة، مخلفة وراءها الرعب عنــد العدو الذي بدا وكأنه يُسحب إلى معركة بدر وهو مشلول من الخوف.

٤. إقرار الأمن

كان النهب والسلب سائداً في تلك الأيام في الصحراء. فالحق للقـــوة، و لم يكن للضعيف وللمظلوم حق الحياة، فالذي يملك القوة كان يستطيع ســـحق الآخرين. وأمام هذا الأمر كان الرسول ﷺ يخطط الآتي: يجـــب أن تتجـــول السرايا والمفارز في كل مكان دون أن تمد يدها بأي سوء لأي شخص لا لماله ولا لعرضه ولالشرفه. أجل، سيمر أناس مسلحون من أمام البيوت والمساكن، ولكن كرمز للأمن وللاطمئنان دون أن يمس أحدهم بسوء. إذن، رأى الجميع أن الصحراء يمكن أن تكون شاهدة لشيء أخر غير السلب والنهب، ومن كان يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير النبي ﷺ؟ وهكذا عرف الجميع بشكل جيد بأن الصحراء لم تعد ملكاً لمشركي قريش وحدهم، بل إن لمحمد ﷺ نصيباً وحـــصة وحقاً، وسيزداد هذا الحق على مر الأيام ويكبر كلما انتشر النور حتى يكون له في كل بيت وفي كل قلب أثر.

ز- **السـرايـا**

١. السرية الأولى وحمزة رضي الله عنه

من أجل تحقيق هذه الأهداف قام الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة المنورة بقليل بتشكيل السرية الأولى التي ألفها من مائة شخص، وأسند قيادتها إلى عمه حمـــزة رضي الله عنه. وأسس الرسول ﷺ في تلك الأيام شبكة استخبارات واسعة بحيث لو طـــار طائر في الصحراء لأتاه خبره.

في تلك الأيام مرت قافلة فيها أموال كثير من المهاجرين. مرت هذه القافلة

قرب المدينة وأمام أنظار المسلمين وكأنها تتحداهم. وهنا تعرض لها سيدنا حمزة ﷺ، ومع أنه لم يلحق أذى لأي منهم إلا أن الأعداء ارتعبوا رعباً كبيراً، وأسرعوا بالفرار دون أن يلقوا نظرة وراءهم.[1] لندعهم يفروا ولنرجع إلى الذين شاهدوا هذا الأمر من سكان المدينة أو سكان القرى القريبة. لقد تأكد لديهم وجود قوة أخرى غير قوة أهل مكة. ونرى من نافلة القول الحديث عن الأثر النفسي الذي تركته هذه الحادثة في نفوس مشاهديها.

كان أهل مكة يفرون على الدوام في أثناء هذه الحركات، وعندما يفرون والمسلمون في أثرهم، كان المشاهدون يبقون في حيرة وعجب ودهشة.

أجل، كان الرسول محمد ﷺ كأي قائد استراتيجي يطارد أعداءه ويسحر -بهذا المعنى- الجميع ويأخذهم تحت تأثيره، فكانت القلوب تلين للإسلام على مرّ الأيام، وتقبل أفواج ثم أفواج من القبائل لتدخل إلى الإسلام. أصبحت الطرق أمينة، فقد أظهر الإسلام قوته وبأسه، فعندما أصبح الإسلام يمثل الحق أظهر القوة التي تحفظ هذا الحق، وبدأ الجميع يفكرون بشكل مختلف عن السابق.

٢. السرية الثانية

ثم ما لبث أن شكل سرية ثانية على رأسها سعد بن أبي وقّاص ﷺ. ولم يتأذ أحد من هذه السرية أيضاً، لأن الغاية كانت إرسال القوة وإنزالها في الموضع المعين، لكي تعلم قريش التي كانت القوة دينها الوحيد أن القوة إن أظهرت

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٤٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٢٨٦

فائدتها في شيء فلن تفيد في كل شيء. وكان الهدف أيضا هو مقابلة هذه القوة بالقوة التي تمثل الحق. أي القوة التي لا تنـــزلق إلى الجبر وإلى الظلم وإلى الجبروت وإلى الغدر وإلى الباطل، بل القوة التي تبقى بجانب العدل وبجانـــب الرحمـــة، إلى درجة أن المسلمين لو شعروا ببعض الحاجة إلى الحليب استأذنوا صاحب الغنم أو راعيها ودفعوا له من المال مقابل ذلك. كان هذا التصرف من المـــسلمين شـــيئاً جديداً وغريباً على البدو لم يشاهدوه و لم يعرفوه من قبل، فكانوا يشاهدون هذه التصرفات وهم في ذهول: أهؤلاء هم الملائكة الذين تحدث عنهم النبي إبـــراهيم وقد نـــزلوا من السماء أم ماذا؟

٣. سرية عبيدة بن الحارث

ثم شكل سرية وضع على رأسها عبيدة بن الحارث، وهو ابن عمه الحارث بن عبد المطلب. هذا الشخص الذي سيكون من أوائل شهداء بدر، وعندما جيء به إلى رسول الله ﷺ في معركة بدر والدماء تنـــزف من يده المقطوعة لم يكن قـــد مات بعد، ولكنه كان قلقاً، فقال للرسول ﷺ: "ألست شهيداً يا رسول الله؟" فقال ﷺ: «بلى»[١] هذه السرية التي قادها عبيدة بن الحارث ﷺ وصلت إلى بطن رابغ حيث أوقع الرعب في قلوب الأعداء ثم رجع.[٢] وكان هذا مفاجأة قاسية لقريش ولأدلاء قوافل قريش، لم يتخلصوا من تأثيرها مدة طويلة.

---

(١) «**المستدرك**» للحاكم ١٨٨/٣؛ «**المغازي**» للواقدي، ٦٩/١-٦٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٤/٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤١/٢؛ «**المغازي**» للواقدي، ١٠/١

٤. كان هو القائد

كانت السرايا السريعة الضاربة تترى. وبعد هذه السرايا شكل الرسـول ﷺ سرية تتألف من قوة قوامها مئتا مسلح قادها بنفسه، وخرج يهدد بها قافلة لقريش كانت متوجهة للشام. وخطط كل شيء بدقة وجعل الطرق كلها تحت رقابتـه، بحيث أنه لو لم يسمح لقافلة قريش بالمرور لما استطاعت ذلك. وكان هذا تهديـداً أرعب قريشاً وأفزعها، ثم رجع الرسول ﷺ دون أن يمس أحداً بأذى.[١]

ثم رتب سرية أخرى بقوة أصغر وللهدف نفسه، فوصلت إلى بُوَاط[٢] وأرهبت أعداء الله ثم رجعت.[٣] وقابل أعداءه بالطريقة نفسها في العُشَيرة، ليذكّر الجميـع قبل عودته إلى المدينة أنه أصبح ينظم الأمن والأمان في الصحراء.[٤]

٥. سرية عبد الله بن جحش

والسرية الأخيرة عقدها تحت قيادة عبد الله بن جحش الذي كان ابن عمته.[٥] كان يختار القريبين منه لمثل هذه المهمات، وكان يرسخ قرابة العقيدة بقرابة الـدم. ذلك لأن المسلمين لم يقاتلوا حتى ذلك الحين أعداءهم، وكان قتال الأقرباء وقتلهم مخالفا لقانون الصحراء ونقضاً كبيراً له، لذا فقد كانت معركة بدر الكبرى مهمة

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤١/٢؛ «**المغازي**» للواقدي، ١٢/١

(٢) **بُوَاط**: جبال من جبال جهينة، بقرب ينبع. بينها وبين المدينة نحو أربعة برد، وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام.

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٨/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٠١/٣

(٤) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٨/٢-٢٤٩؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٠٢/٣

(٥) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٥٢/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٠٤/٣-٣٠٥

جداً، وكان الطريق إلى بدر يمر من هذه السرايا. وقد عين على رأس هذه السرايا التي كانت الممر إلى بدر الكبرى أقرباءه مثل سيدنا حمزة ﷺ وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن جحش، لأنه أراد أن يحمل أقرباءه هذه المسؤولية الثقيلة والمهمة الصعبة التي كانت تتناقض مع قانون البداوة وقانون الصحراء، كما قاد بنفسه ثلاثاً أو أربعاً من السرايا.

كان عبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ﷺ. وأصبح فيما بعد البطل المغوار في معركة أُحد، ولكنه كان ضعيف البصر يشكو من قصر نظر حاد، فلا يستطيع أن يرى سوى بعض السواد، ومع ذلك فلم يتخلف عن أي معركة، وقاتل في معركة بدر بكل شجاعة، وعندما رأى الهزيمة في صفوف المسلمين يوم أُحد لم يتحمل وبادر يقاتل بكل ضراوة. يقول سعد بن أبي وقّاص ﷺ إن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخليا في ناحية فدعا سعد فقال: "اللّهم إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَده[1] فأقتله فيك وآخذ سلبه." فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللّهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذنيّ، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله! فيم جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقتَ." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط.[2]

---

(١) **الْحَرَد**: الغضب

(٢) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٣/١٩٥؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٢٨٦-٢٨٧؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٣٠١

إذن، فهذا هو عبد الله بن جحش الذي كان على رأس سرية نَخْل. حيث أرسله الرسول ﷺ مع إثني عشر من أصدقائه إلى موضع يدعى نَخْل يقع على بعد ٥٠٠ كم من المدينة، وكان هذا الموضع قريباً من مكة. كان على السرية أن تذهب إلى هناك ثم ترجع بعد ترصد أحوال أهل مكة. و لم يكن في الإمكان القيام بمثل هذه المهمة دون أن يأخذ الإنسان الموت في حسبانه عدة مرات. لذا، أبدى الرسول ﷺ فطنته في الاختيار المناسب، إذ وضع على رأس هذه السرية الشخص المناسب، فقد كان من الضروري أن يكون هذا الشخص فرداً يستخف بالحياة ولا يهاب الموت، وكان عبد الله بن جحش هذا الشخص.

أعطاه الرسول ﷺ كتاباً فيه أوامره حول وظيفة هذه السرية ومهمتها، على أن لا يُفض هذا الكتاب ويُقرأ إلا بعد الوصول إلى الهدف. كما أوصاه ألا يكره أحداً على الاشتراك معه في هذه السرية، بل يجب أن يكون الجميع من المتطوعين. وقد اعتذر أحدهم من الذين قبلوا الاشتراك سابقاً وتخلى عن الاشتراك معهم، أما الباقون فقد نفذوا الأوامر وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موضع نَخْل، وفتحوا رسالة الرسول ﷺ وقرأوها، وطبقوا ما جاء فيها. ولكن حدث حادث عارض لم يكن في الحسبان قتل نتيجته أحد المشركين، واستولوا على أموال الفارين، وجاءوا بها إلى الرسول ﷺ. وقد حدث هذا الحادث بشكل فجائي، و لم يكن الرسول ﷺ قد أمرهم بالقتال، واستغل أهل مكة هذه الحادثة وبالغوا فيها وقالوا: "لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال." فلما أكثروا نزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ

وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧).[1]

ح- **نتائج السرايا**

١. تحقيق السيادة

ما إن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى بدأ بترتيب الحركات التعرضية السريعة، حتى خنس أعداؤه، وشاع بينهم الرعب والفزع، وهدد حياتهم الاقتصادية وجرهم إلى الأزمات المالية، وساق الحوادث نحو معركة بدر الكبرى، وأسس خلال ذلك شبكة استخبارات واسعة، بحيث أن قريشاً كانت تخشى أن يكون الرسول ﷺ على علم بما يجري حتى في بيوتهم. وكان الموضوع الذي يتحدث به الجميع في كل مكان هو أن من يقوم بعمل مثل هذه الاستخبارات، لا بد أن يعلم بكل ما يعمله أعداؤه. وكان هذا أمراً مقلقاً جداً بالنسبة لهم.

كان يقال لنا عندما كنا في الخدمة العسكرية بأن التحارب يعني التخابر. فإذا كنت تملك مؤسسة استخبارية جيدة، ونظاماً جيداً للمواصلات، تكون قد أمنت نصف النصر. هذا إن كانت أخبارك لا تصل إلى عدوك، وكنت تحصل على أخبارهم على الدوام، وتحيط مركز القيادة علماً بأخبارهم أولاً بأول. ومع أن التكنولوجيا تقدمت كثيراً في هذا العصر إلا أن من الصعب أن توصل الأخبار دون أن يعلم بها الطرف المقابل. بينما استطاع الرسول ﷺ أن ينشئ في تلك

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٥٢/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٠٦/٣

الظروف البدائية شبكة استخبارات جيدة، استطاعت أن توصل الأخبار إليه أولاً بأول، وبسرعة فائقة، وضمن جو من الأمن والثقة، فكما كان الوحي يأتيه بكل أمان وثقة بوساطة ملك رفيع المنـــزلة مُطاعٍ ثَمَّ أَمِين، كانت شبكة اســتخباراته تمده بالأخبار بنفس الثقة والدقة، وكان على ارتباط دائم بهذه الأخبار، لم تكــن أخباره تصل إلى أعدائه بينما كانت أخبار أعدائه تصله أولاً بأول.

هناك قادة يعتبرهم الغرب من الدهاة ومن العباقرة أمثال قيــصر (César) وهَنيبَل (Hannibal) ونابوليون وهتلر (Hitler). ولكن التاريخ يشهد أن أي أحد من هولاء لم يؤسسوا شبكة استخبارات جيدة بالمستوى الذي أســسها الرسول ﷺ، و لم يضعوا أعداءهم تحت مراقبتهم كما فعل ﷺ. ولــيس هنــاك شاهد واحد في التاريخ على تسرب خبر واحد من أخباره إلى الأعداء، وإلا لم يكن بمقدور حفنة من المؤمنين الانتصار على كل أولئك الكفار والفجار. فعناية الله وتوفيقه تكون بنسبة الأخذ بالأسباب وبالتدابير، ولكونه قدوة لنا وأســوة حسنة، فإنه كان يتصرف ضمن دائرة الأسباب.

لنرجع إلى الصدد: لقد رأينا في الحروب العالمية أن وضع موانئ بلــد مــا، ووضع تجارته تحت التهديد وضرب مقاطعة اقتصادية عليه، سيضيق الخناق على إنسان ذلك البلد، ويجعله غير واثق من غده، وهذا شيء مهم. أجل، فعنــدما تبدأ بالنضال مع أعدائك الذين يرومون شرب دمائك، لا بد أن تسعى لــشل حركتهم أولاً. لهذا كان الرسول ﷺ يروم شل حركة أعدائه بإرســال هــذه السرايا السريعة الحركة. لم يعد هناك أمان لأهل مكة، وبدأ الأعراب والبدو في الصحراء يقولون في أنفسهم لم يعد باستطاعة أهل مكة أن يحافظوا علينا، و لم

يعودوا مبعث أمن لنا، والظاهر أن مصير الناس انتقل إلي أيد أخرى، لذا فمـــن الأفضل لنا أن نتقرب إلى هؤلاء. أجل، بدأوا بالتفكير على هذا النحـــو، لـــذا بدأوا يأتون إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً ويعلنون إسلامهم.

كانت القوافل تحت التهديد على الدوام على الرغم من عدم إيـــذاء أحـــد منهم، هذا عدا استثناءاً واحداً حدث في موضع نَخْل حيث مات أحد البائسين بسهام المسلمين.

٢. ذيوع الأمن

بدأ الرسول ﷺ يحقق جميع أهدافه من إرساله هذه السرايا، فقد ظهرت قوة جديدة في الصحراء أثبتت وجودها. فأمام قريش الظالمة كان هناك محمـــد ﷺ وجماعته. ومع أنه بدأ يمثل القوة، ويطارد اللـــصوص والنـــاهبين، إلا أنـــه لم ينحرف إلى الظلم أبداً، بينما كانت القوة في الجبهة المقابلـــة عنـــوان الظلـــم والاعتداء، إذ يغيرون ليلاً، فينهبون ويقتلون الضعيف، دون الالتفات إلى أنـــين الضعيف وآهاته.

كانت هذه القوة من طراز آخر، فكأنها قوة نـــزلت من السماء، فعلـــى الرغم من توفر القوة عندها فهي تقف عند خط الحق والعدل وتحترم الحقوق، وكان التاريخ يشاهد للمرة الأولى مثل هـــذه الرعايـــة والاحتـــرام للحـــق وللحقوق. وكان هذا يتم بيد محمد ﷺ، بينما كان غيره يضع كل يوم مـــا يناسبه من القوانين، ويقدمها على أنها هي التي تمثل "الحقوق". علمـــاً بـــأن محمداً ﷺ كان يؤمن بسمو وعلو القوانين والحقوق التي وضعها الله تعـــالى..

احترم هذه القوانين وهذه الحقوق، ولم يمد إصبعه إلي أي حرام أو إلي أي محذور، وقد شاهد هذا إنسان الصحراء وكل إنسان، وشهده البدو. كانت هذه السرايا المسلحة تمر أمام الخيام، ولكنها لا تتعرض لا إلى أي امرأة أو إلى أي شابة ولا لأي مال، ولا ترتكب أي ظلم مهما كان ضئيلاً. لقد كان الرسول ﷺ يهدف أن يرى الناس هذا، وبدأت الثقة تنتقل شيئاً فشيئاً من مكة إلى المدينة، ذلك لأن "الأمين" كان هناك. لم تعرف مكة قدر "الأمين".. الأمين الذي ندعوه نحن "محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين." لقد كان الآن في المدينة، وكان الأمن والأمان عنده. هذا ما كان يفكر به البدو والأعراب ورجال القبائل، لذا بدأوا يتوجهون نحو المدينة، بينما فقدت قريش كل مظاهر الثقة المعقودة لها سابقاً. لم تكن عاجزة عن إعطاء الأمن والثقة للآخرين فقط، بل كانت عاجزة عن تأمين قوافلها هي، إذ كانت تحت تهديد دائم. وكان هذا الأمر يؤدي إلى تحلل دائم في صفوف المشركين. وكلما شاهد هذا أهل مكة ركبهم الغضب والهم.

٣. سرعة السيطرة على الأمور

إن إثارة العدو ومضايقته ودفعه إلى الحركة قبل الأوان مسألة مهمة، لأسرد عليكم حادثة جديدة، لقد سألوني مرات عديدة: "هناك حركات في تُرْكِسْتان وأوزبكستان وجورجيا (Georgia) وداغستان، كما أن هناك حركة ما في القِرم. أهذه هي الأيام السعيدة التي وعدها الأنبياء والأولياء، والتي قالوا أنها ستكون قبيل يوم القيامة؟ أيتم التوجه إلى مثل هذه الأيام؟ أي هل تستطيع الأمم الأسيرة الحصول على حريتها وعلى حقوقها المشروعة؟ صحيح أن

التوجه حالياً هو هذا التوجه، ولكن الأعداء هـــم الـــذين يـــضعون بعـــض سيناريوهات هذه الحوادث، ويهيئونها لوضعها على المسرح الدولي. أجـــل، إن الأعداء هم الذين يقومون بتخطيط الحركات في بلدان إخوتنا في الدين والدم، ذلك لأننا لا نـــزال هناك ضعافاً، كالفراخ داخل البيض، أو كالبيض تحـــت الدجاج. فهم يقومون بإثارة حفنة من المشردين والأوبـــاش ويـــدفعونهم إلى التظاهر في الشوارع، ثم يدفعون بالوحدات المسلحة علينا ليحطموا رؤوســـنا ونحن بعد ضعاف، ذلك لأن بعضاً من رؤوس هولاء ذهبـــوا مـــن جورجيـــا (Georgia) إلى بلغاريا وظهروا في شُـــومن[1] وفي صـــوفيا (Sofia) حيـــث صرحوا هناك: لقد ثرنا نحن في روسيا واستطعنا انتزاع بعض حقوقنا، ثـــوروا أنتم وانتزعوا حقوقكم. هذه مسألة مهمة، وهي جهود لسحبنا إلى جهة معينة للقضاء علينا، ولكنهم لا يعرفون أن العاقبة للمتقين و"الحق يعلـــو ولا يعلـــى عليه." ونتمنى من الله تعالى أن يجعل كيدهم في نحرهم.[2] ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْـــرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يهدف من تحركاته هذه إثارة أعدائه الـــذين بدأوا يقولون إن قوافلنا في خطر وحياتنا الاقتصادية تحت التهديـــد، وبـــدأت الصحراء تدخل في حكمه شيئا فشيئاً، لذا يجب أن نحسب حسابه. أجل، كان أبو جهل يقول لهم هذا، وعندما أراد بعضهم الرجوع عن القتال في بدر قـــال لهم: "والله لا نرجع حتى نرد بدراً -وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع

(١) **شُومن**: مدينة في بلغاريا. وصوفيا هي عاصمة بلغاريا.

(٢) قال المؤلف هذا الكلام في ١٩٨٩ عندما بدأت الحوادث في الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. فامضوا."[1]

كان هذا هو هدف رسول الله ﷺ، وكان القرآن يعلمه هذا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُم قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (الأنفال: ٤٤).

أي أن الله تعالى يقول لهم بأنه قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين لكي يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويسوقهم إلى مقابلة غير محسوبة من قبلهم. فالله تعالى كان قد أصدر حكمه ولا بد من تنفيذه، أي إن العاقبة كانت مؤكدة لا يمكن الهروب منها، وكان الله يستدرج أعداء الإسلام إلى هذه النتيجة، لذا سيجد هؤلاء الأعداء أنفسهم فجأة وجهاً لوجه مع المسلمين في بدر الكبرى في وقت لم يحسبوا حسابه ولم يتوقعوه من قبل، إذ لم يكونوا يعرفون استيراتيجية الحرب لدى الرسول ﷺ. لقد أبعدوه وأخرجوه من بلده وها هم الآن يقفون أمامه وهم يرتجفون. كان يرتب السرايا منذ سنة واحدة ليحق الحق، وليسترد منهم ما أخذوه وليحطم معنوياتهم. لم يكونوا يعرفون عنه ناحيته الحربية والعسكرية، بعد ساعات سيعلمون هذا، ولكن لن يفيدهم هذا. أجل، كان أمامهم قائد حربي لم يعرفوه بعد، كما قابلتهم خطة حربية لم يعرفوها من قبل، فسقطوا كأوراق الخريف.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٠/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٤/٣

٤. تهيئة الحوادث لبدر

ها هم الآن في بدر الكبرى.. لم يكن الرسول ﷺ قد انتهى إلى بدر مثل أي إنسان عادي آخر أو مثل أي قائد حربي آخر. ذلك لأنه كان يعلم جيداً فيما هو مقبل عليه، كان قد أتى إلى هناك وهو يعلم أن ساعة الحساب مع أعدائه قد أزفت وأن صراعه معهم قد بات وشيكاً، وأنه حتى مجيئه بدراً كان قد رتب سرايا عدة قامت بحركاتها ومناوراتها السريعة بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وشل روحهم المعنوية في كل مكان وفي كل ناحية وفي كل بيت، وجعلهم يشكون في قوتهم وقدرتهم إلى درجة أنه جعلهم يقولون "لم يعد هناك أمان في مكة وما جاورها." وهكذا أصبح الرأي العام للعرب في البادية بجانبه. لقد انتقل صمام الأمن إلى يد "الأمين". هذا ما بدا الجميع بقبوله. ألم يكونوا يلقبونه في الجاهية بـ "محمد الأمين"، ويعدونه الممثل الوحيد للأمانة؟ لقد كان أميناً في الأرض وأميناً في السماء كذلك. وقد قال في أحد الأيام متحدثاً بنعمة الله عليه: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء.»[١]

لقد بدأت البادية تعرف جيداً من الأمين وأين الأمن.. أجل، لقد كان "الأمين" في المدينة.. كانت السيادة تنتقل إليه.. إلى السيد القرشي في المدينة.. كان سيد قريش أيضا وسيد بني هاشم، بل سيد الإنسانية كلها وسيد الوجود كله... كان هو سبب الوجود وعلته وغايته فهو الذي قيل فيه: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك.»[٢] صحيح أن هذا ليس حديثا صحيحا إن نظرنا إليه من

(١) **البخاري**، المغازي، ٦١؛ **مسلم**، الزكاة، ١٤٤

(٢) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١٦٤/٢

ناحية علم الحديث، إلا أن معناه من ناحية مطابقته للواقع يمكن أن يـــرد علـــى الدوام. أجل، لولاه لما ظهر معنى للكون ولما فهم هذا المعنى، ولما تم النفـــوذ إلى حقائق الأشياء، لما عرف معنى الدنيا ولا معنى الآخرة، ولا معنى الضمير ومعـــنى الإنسان. لولاه لكانت الدنيا شبيهة بمأتم، كان كل ميت سيغرقنا في الحزن، وكل حادث مؤلم يكتم انفاسنا، لقد تعلمنا منه كيف ننقذ أنفسنا من الظلام، ونسرع إلى ميدان النور. هذه الدنيا التي إن نظرنا إلى جوانبها المطلة على ذاتها رأيناهـــا قطعة من جهنم ولكنها أصبحت بفضله جنة لنا، فقد تعلمنا من بيانه المضيئ أن الإيمان يحيل حتى الدنيا إلى جنة، وتعلمنا منه أن كل مؤمن يحمل نواة من نـــوى الجنة، بحيث تجعل هذه الحياة الدنيا شبيهة بحياة الجنة. تعلمنا هذا منه فوصلنا إلى شاطئ الطمأنينة والسكينة، تعلمنا منه أن اطمئنان القلوب يكون بذكر الله ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

أجل، إن السعادة لا تتحقق فقط بالرفاه المادي وبوفرة المال وبامتلاك الدور والعمارات وبيوت العطل الصيفية، بل بالإيمان وبالسعادة القلبيـــة والتمـــسك بالقيم الإنسانية، حيث ترسو القلوب إلى شواطئ الاطمئنان وتهـــدأ الرغبـــات وتنتهي الطلبات. وإلا فلو أعطيت الدنيا بكاملها لإنسان واحد لمـــا انتـــهت رغباته وما سكنت شهواته. وكان هو معلمنا في كل هذه المسائل، وكما يقول الشاعر الشهير محمد عاكف:

المجتمع مدين لـــه.. والفرد مدين لـــه.

والبشريـــة جمعاء مدينة لذلك المعصوم.

يارب! احشرنا يوم القيامة بهذه الشهادة.

كانت قلوب أصحابه الذين توجهوا معه إلى بدر مملوءة بالشوق إلى الجنة، إلى درجة كانوا وكأنهم يرون تلالها وجبالها. كانوا قد تهيأوا جيداً، ووصلوا إلى بدر وهم في أفضل درجات الرضى والاطمئنان.. لقد أصبحت الضمائر متوجهة إليه ومقبلة عليه.. لقد وجدت الإنسانية ضالتها في محمد المصطفى ﷺ سواء أكان في المدينة أم في مكة.. لقد بدأ عهد الأمين.

ثم سيأتي يوم يقول فيه لعدي بن حاتم: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟» فيقول: لم أرها وقد أنبئت عنها. فيقول: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.»[1]

لقد كان هذا العهد الذي تكلم عنه وأشار إليه قد بدأ فعلاً منذ ذلك الوقت، فالحركات العسكرية الكثيرة التي أجراها وطدت الأمن أولاً ثم أرست أسس معركة بدر.

لم يتأذ أحد من هذه الحركات العديدة و لم يفقد أحد أمنه واطمئنانه، فمع أن هذه السرايا كانت تظهر هنا وهناك بسرعة البرق وتؤكد على وجودها، إلا أنها كانت تزرع الأمن والاطمئنان، إذ لم يكن أفراد هذه السرايا جماعة نهب وسلب، بل الجنود الأمناء لمحمد ﷺ، أي فريق الأمن والأمان، وضد جماعات النهب والسلب، وضد الأشقياء والشقاوة، فهم لا يخلفون وراءهم سوى آثار الاطمئنان والأمن، حتى يتساءل الجميع: من أين أتت هذه الرحمة؟ كانت هذه الرحمة آتية من سحب رحمة محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، وكانت هذه السرايا هي رعوده وبروقه، وكانت الأنوار المنتشرة منها تكتب اسمه.

---

(١) **البخاري**، المناقب، ٢٥، «**المسند**» للإمام أحمد ٢٥٧/٤، ٣٧٨

الفصل الثاني:

نبينا والمعارك التي خاضها

أ- معركة بدر وأسبابها

تحت هذه الظروف التي رعتها السماء تم الإقبال على بدر، لقد جاء الوقت المناسب لإنـــزال الضربة النهائية على رؤوس الذين يعرقلون ويمنعون الـــدعوة المخلصة الصافية إلى الله تعالى وإلى إعلاء كلمة الله، ولكي يقال لأعداء الله: لن تستطيعوا بعد الآن منع ذكر اسم الله تعالى في أرجاء الأرض ولن تـــستطيعوا إدامة الضغوط على النفوس المنفتحة على دعوته. أجل، فـــدعوة الله يجـــب ألا تبقى منحصرة في مكان محدد، بل يجب أن تدخل إلى النفوس جميعها لتطمـــئن بها جميع القلوب، ويجب أن تزال جميع العقبات من أمام إعلاء كلمة الله لكـــي لا تبقى هذه الكلمة في نطاق الأسر، بل لتنتشر في آفـــاق الإنـــسانية كلـــها، وتكون لها مبدأً. ولكي يقوم الرسول ﷺ بإنـــزال الـــضربة الاخـــيرة علـــى مشركي مكة الذين لم يعترفوا له بحق الحياة الكريمة في مكة، فكـــان عليـــه أن يفتح الطرق المؤدية إلى حرية الفكر ويحطم كل ما يعوق أو يمنع هذه الحرية.

ثم إن المسلمين كانوا قد فقدوا جميع أموالهم التي اكتسبوها حـــتى ذلـــك الحين. لأن الرسول ﷺ والمهاجرين عندما هاجروا من مكـــة لم يـــستطيعوا أن يأخذو معهم إلا الشيء القليل، وتركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة المكرمة،

وكان أهل مكة يحملون هذه الأموال على الجمال ويذهبون بها أمـــام أنظـــار المسلمين لبيعها في الشام أو اليمن. كانت الأموال المحملة على القافلـــة المـــارة بالقرب من المدينة أموال المسلمين وكان يجب استردادها.

ثم كان من الواجب معاقبة بعض الأشخاص الـــذين كـــانوا يطـــاردون المسلمين، ويهددونهم ويضيقون الخناق عليهم ويعذبونهم، كان بعضهم يقتلون المسلمين بحرابهم التي يصوبونها لتخترق صدور المسلمين ويطردونهم من أوطانهم ومساكنهم. كان من الضروري معاقبة هؤلاء وإيقافهم عند حـــدهم، وإلقـــاء الرعب في قلوبهم. كان عليه أن يسدد إليهم ضربة أخيرة لكي يقول لهـــم: إن القوة ليست بأيديهم بل في يد الحق، وإن الله تعالى سيهب القوة لمـــن ســـلك طريق الحق، وستكون القوة كلها في يد الحق إن لم يكن اليوم فغداً، وســـيأتي يوم تكون الكلمة فيه للحق، حيث سيسود الحق في القلوب والأفئدة، وســـيتم إظهار الاحترام للإنسان وللحقيقة السامية التي أتت بواسطة الإنسان.. كـــان هذا ما يقاتل من أجله الرسول ﷺ.

وكان هناك أناس من بعض الأقوام والقبائل لفتهم الحيرة، فبقوا في الوسط لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان قسم منهم يرغب في الدخول إلى الإسلام، إلا أنهم كانو يخشون ظلم قريش واضطهادها، فبقوا محتارين ومترددين، يرفعون أرجلهم ولكنهم لا يستطيعون الخطو إلى الأمام.

ولكن بعد أن رأى هؤلاء أن القوة أصبحت بيد رسول الله ﷺ، وأن توازن القوى تغير لصالح المدينة اطمأنوا واستطاعوا أن يخطوا تلـــك الخطـــوة وهـــم مطمئنون، فكأن الرسول ﷺ يقول لهم: "لا تخافوا ولا تحزنـــوا، ســـيجعل الله

تعالى لكم فرجاً ومخرجاً إن كنتم مؤمنين، وسيفتح لكم الأبواب والشبابيك على مصاريعها، لكي تصلوا إلى السعادة وإلى الأمن والاطمئنان" هكذا كان الرسول يخاطبهم، ولكن المترددين لم يتأكدوا من هذا إلا في نهاية معركة بدر الكبرى، إذ رأوا كيف أن ميزان القوة قد تغير مكانه، وأن كفار مكة لم يعد في إمكانهم أن يمدوا لهم يد الأذى، فتوجهوا إلى المدينة، إلى مركز المدينة وإلى الرجل العظيم فيها محمد ﷺ، وإلى حقيقة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

١. القوى في بدر

جاء في كتب السيرة والمغازي أن الرسول ﷺ ذهب إلى بدر مع ٣٠٥ من أتباعه، وبعض الكتب يرتفع بهذا العدد إلى ٣١٣ من المقاتلين،[١] ويقول بعضهم إن هذا العدد هو عدد الجنود الذين قاتلوا مع النبي داود عليه السلام ضد جالوت. أجل، كانت عمليات تحويل قدر الإنسان وتاريخه يتم في هذين العهدين، فجيش النور كان يقاتل جيش الظلام، وكانت قمتا وذروتا آل إسحاق وآل إسماعيل تُمثلان حقيقة الحنيفية الموحدة، وكان العدد في كلا الجيشين هو ٣١٣.

أجل، فكما قال محيي الدين بن عربي في "فصوص الحِكَم"، فقد كان على رأس أحد الجيشين النبي داود عليه السلام الممثل للخلافة، وعلى رأس الثاني ممثل الشفاعة العظمى وممثل مقام الفردية، الفرد الفريد محمد ﷺ.

كان في جيش بدر فارسان و٣٠-٤٠ بعيراً، وفي مقابل هذه الإمكانيات

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٦٤/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٨/٣

القليلة التي كان يملكها المسلمون، ومقابل الجوادين اللذين كانوا يملكونهما، نرى أن المشركين يملكون ٢٠٠ من الخيول، أي أن مقابل كل فرس للمسلمين كان هناك ١٠٠ فرس، أي مقابل كل فارس كان هناك مائة من الفرسان، ومقابل ٣١٠ من المحاربين المسلمين كان لدى المشركين ما يقارب الألف من المحاربين أي أن كل مسلم كان يقاتل ٣-٤ من المشركين. وكانت قريش قد أتت بجيش مجهز بكل ما عرف من قبلهم حتى ذلك الحين من التجهيز للقتال، أي بجيش مجهز بكل أدوات الجيش المعروفة آنذاك وأسلحته، بينما جاء جيش الرسول ﷺ وهم يتعاقبون الركوب على عدد قليل من الجمال ليقطعوا مسافة ٢٠٠ كم. من المفيد معرفة هذه المعلومات، معرفة تلك الظروف من صحراء وحر وصيف، وكون الجيش صائماً، لأن الشهر كان شهر رمضان، وكان عليهم قطع مسافة ٢٠٠ كم في ذلك الحر الشديد، ثم أتدرون ما الصحراء؟ وأين بدر؟ بعض الذين ذهبوا إلى الحج يعرفون ذلك بعض المعرفة، توجد على الطرق هناك الآن محطات بنزين، فإذا تخيلت خلو هذه المنطقة، هذه الطرق من هذه المحطات ومن بعض الواحات الصغيرة -وهي حديثة- فلا يبقى أمامك سوى الرمال الممتدة على مد البصر في كل اتجاه، وستسمع أصوات العواصف الرملية وهي تهب من هنا وهناك وتهددك.

والشيء الآخر من الموضوع هو أن المسلمين خرجوا لتهديد قافلة قريش، ولكن إرادة الله كانت متوجهة لأمر آخر، إذ ساق المسلمين إلى ملاقاة جيش قريش. يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٧-٨).

٢. المواجهة

ولأن الله تعالى كان يريد هذا فإنه ساق المسلمين -رغم أن نيتهم كانـــت شيئا آخر- لكي يلاقوا جيش المشركين وليس قافلتهم. كان المسلمون يرغبون في تعقب القافلة ثم الايقاع بها، واسترداد أموالهم منها، بينما كـــان الله تعـــالى يفتح أبواب عهد جديد، ينغلق فيه عهد ظلمهم ونهب أموالهم. أجـــل، كـــان على المسلمين أن يوقعوا ضربة قاضية على المشركين، تجعلهم يترنحون تحتها ولا يثوبون إلى رشدهم. لقد انفتح عهد "الحق يعلو ولا يعلى عليه" فالحق يجب أن يغلب ويعلو ولا يعلو عليه شيء. كانت هذه هي مشيئة الله: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن." ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (التكوير: ٢٩).

لذا، فلا يهم مشيئة أي إنسان آخر، كانت مشيئة الله هي التوجه إلى بدر، وكان رسوله يحدس هذا، وكانت السماء تتطلع بنظرها إلى ذلك اليوم المبارك من شهر رمضان المبارك الذي كان يقترب شيئاً فشيئاً من ليلة القدر. وعنـــدما وصلوا إلى هناك أُمطِرَ المسلمون مطر السكينة، وكان هذا يحمل لهـــم معـــنى خاصاً، فقد أطفأ به الغبار وتماسكت به رمال الأرض، وامتلأت الآبار بالميـــاه، وكأن الملائكة نـــزلت مع قطرات ماء المطر. والحقيقة أن الملائكـــة نـــــزلت واتخذت هيئة المسلمين وشارتهم لكي يتشبهوا بهم، وكان شعار المـــسلمين في ذلك اليوم هو "أحد، أحد!"[١] سيهتف الجميع "الله أحد" وســـيزأرون بهـــذه الكلمة. كانت عباءاتهم بيضاء وكأنها الأكفان، لأنهم عندما خرجوا لم يكونوا يعرفون متى وأين سيقابلون أعداءهم، لذا كانوا مستعدين للموت ولاســـتقبال

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٨٧/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٥/٣

الحوريات لهم، لذا لبسوا عباءات بيضاء مثل ملابس الحجاج على عرفة، كان منظرهم شيئا يستحق النظر حقاً.

كان هناك من غمره الألم لعدم استطاعته المشاركة في هذا السفر المبـــارك، من بينهم أنس بن النضر الذي لم يكن يفكر بمفارقة الرسول الأكرم ﷺ حتى في منامه. فاته الاشتراك في هذه المعركة فتقلب على آلام هـــذا الفـــراق وعـــدم المشاركة عاماً كاملاً. وإذا أحببتم قمت بالدعاء لكم أن يرزقكم الله مثل هذا الألم.. الدعاء بقطع العلاقة مع ما سوى الله تعالى لأقول: "اللّهم اشغل قلوبهم وعقولهم بهذا الألم، واطرد النوم من أعينهم." أجل، إن العـــيش في آلام هـــذه الأمة المنكوبة البائسة، والتفكر في أحوالها، والتألم لآلامها، دعاء عظيم وتضرع كبير قد يفوق أجره أجر ألف ركعة من الصلاة حتى في مكة المكرمة، وأفضل من الطواف حول الكعبة. أجل، قد لا تكون فتحت كفيك وتضرعت إلى الله تعالى قائلاً: "يا رب!" ولكنك أرقت وتقلبت في الفـــراش حـــتى الـــصباح، وحرمت عيناك النوم وأنت تفكر في أحوال الأمة الإسلامية: "آه يا إخواني في تُرْكِسْتان... آه يا إخوتي في أفغانستان... من يدري أي يد امتدت إلى حجاب أختٍ من أخواتي هناك؟ من يدري أي أخت أو أم مـــن أخـــواتي أو أمهـــاتي يتعرضن الآن للاعتداء عليهن؟ إخواني في "جمعة بـــالا" وفي "كملوجـــه" وفي "صوفيا (Sofia)" وفي "اسكج"، وإخواني في "قواله"[1] المدينـــة الـــتي زينـــها السلاطين العظماء بالجوامع التي لم يعد لها أي أثـــر، وإخـــواني في فلـــسطين وكشمير وفي أماكن أخرى عديدة."

---

(١) هذه المدن في بلغاريا واليونان.

أجل، إن تجرع مثل هذه الآلام يعد دعاءً عظيماً وكبيراً، وعند التوجه إلى الله يقول أهل السماء: "آمين"، وهي لحظة يصل فيها المؤمن بآلامه هذه إلى مرتبة سامية، وتتزين هذه المرتبة أكثر إن صحبتها الأدعية.. تلك اللحظة التي يحس فيها المؤمن بصداع في رأسه، ويضع يده على خاصرته وهو يتلوى من الألم، لأنه يكون آنذاك مع إخوانه الذين يقلق من أجلهم، ومع إخوانه الذين يفكرون مثله، ثم إننا موجودون لهذا الغرض، فإذا كنا لا نستطيع عمل شيء، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فإذا تم الاعتداء على إخواننا وعلى أمتنا دون أن يكون في يدنا عمل أي شيء لرفع هذا الذل، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها.

ذهب الصحابة بمثل هذا الفهم إلى بدر بكل شوق، ذلك لأن الجنة كانت أمامهم وتنتظرهم. وكانت هناك حياة أبدية، والأهم كان هناك رضا الله تعالى، وكانت الملائكة فرحة في ذلك اليوم بالمسلمين الذين كانوا يهتفون: "أحد، أحد!" وتتنزل من السماء طوابير طوابير، وكأنها تريد تهنئة المسلمين بالنصر في بدر قبل وقوعه وتحتفل به معهم. كان هناك من يستطيع أن يراهم وعلى رؤوسهم عمامات بيضاء وعليهم عباءات بيضاء، لماذا؟ لأن الصحابة كان عليهم عندما قدموا إلى بدر عباءات بيضاء، وكان الشعار الذي يرددونه على ألسنتهم هو: "أحد، أحد!" أجل، كانت الملائكة تُستقبل بهذه الكلمات بينما كان مشركو مكة وشيوخ الكفر فيها آتين وعليهم ملابس سوداء مثل قلوبهم.

من بين الصحابة الذين أتوا إلى بدر بفرح وبهجة كان هناك صحابي جالس تحت شجرة يأكل التمر، فسمع النبي ﷺ وهو يبشرهم ويقول لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا

أدخله الله الجنة.» فقال: "بخ بخ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقـــتلني هؤلاء؟" ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.[1]

كانت هذه هي الرغبة العامة والمشتركة لديهم في ذلك اليوم، لذا قدموا إلى بدر في شوق وفي لهفة، وهذه حالة روحية ديناميكية لا يمكـــن لأي قـــوة أن تغلبها. بهذه الروح كان هؤلاء قد أُعدوا، إذ لا يمكن مقاتلة مثل هؤلاء الجنود الذين يقبلون على القتال وكأنهم يقبلون على عرس. ذلك لأنهـــم يـــستخفون الحياة الدنيا ولا يرجون في الآخرة إلا رضا الله تعالى، لذا لا يمكن مناجزة مثل هذا القوم ولا الوقوف أمامهم.

٣. الجيش النظامي

كان من حسنات بدر أن عالم البداوة شهد جيشاً نظامياً للمـــرة الأولى فلم يعد هناك مكان لغارات النهب والسلب، ذلك لأن على رأس هذا الجيش كان هناك شخص أتى بالنظام للإنسانية وبالقسط. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ ألاَّ تَطْغَوا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩) تتكرر كلمة الميزان في هذه الآية ثلاث مرات، إذن، فهل هناك أمـــر طبيعي أكثر من أن يندب الله محمداً عليه الصلاة والسلام كرجل نظام ودقة وتوازن ليكون على رأس الجيش في بدر؟

كانت هناك مفارز استكشاف، ولم يكن عرب الجاهلية يعرفون هذا من قبل، وكان أفراد هذه المفارز من الأفراد الذين أنضجتهم الحياة واكتسبوا فيهـــا خـــبرة

---

(١) **البخاري**، المغازي، ١٧؛ **مسلم**، الإمارة، ١٤٥

ودراية بحيث كان من الصعب مشاهدة رجال حربٍ في مستواهم. قامت هـــذه المفارز بما يقارب من عشرين طلعة اكتشاف جابت فيها كـــل أنحـــاء البـــوادي والمناطق. و لم تكن هذه الطلعات مجرد تطبيقات، بل كانت مفـــارز أنـــضجتها الحوادث وصقلتها التجارب وقابلوا الأعداء وجهاً لوجه مرات ودخلوا معهـــم في صدامات ساخنة أحياناً، ووصلوا أحياناً إلى أماكن تجمعهم فأثاروا فيهم الرعـــب والخوف، و لم يكن باستطاعة من لم يمر بتجارهم وتدريباهم أن يقف نداً أمامهم. كانوا على علم جيد بمواقع العدو ومن أين تمر القوافل وأين يوجد من يوصل أخبار العدو إليهم. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتشكل فيها هذه المفـــارز الـــسريعة الحركة في تاريخ البداوة، وربما في تاريخ الإنسانية، وكل ذلك بفضل الرسول ﷺ، هل تقولون: كيف؟ أقول لكم إن الرسول ﷺ الذي لم تكن له تجارب في الأمور العسكرية والاستخبارية قام بتشكيل جيش وطد به أمن الطرق، فأصبح في الإمكان أن يقطع المرء طريقاً طوله مئتا كيلومتر راجلاً أو راكباً على البعير دون مقابلة أي مانع أو عائق. ذلك لأن المفارز والسرايا التي شكلها قامت بما يقرب من عـــشرين دورية استكشاف في هذه المناطق حتى ذلك الحين. لذا، كان في الإمكان قولهم إن المسير من هنا، وإن الطريق هو هنا وهناك، لذا استطاعوا الوصول إلى بدر في أمن وسلام، وكانت هذه مســـألة مهمة.

٤. التوجه إلى موضع الآبار

كانت آبار بدر هي الأماكن التي يحط الجيش فيها رحاله ويستريح، وكان العدو يحاول أيضا احتلال هذه المواضع، يسرع نحوها بفرسانه البالغ عـــددهم مائتي فارس، ولكن فراسة المؤمنين وسرعتهم الفائقة جعلتـــهم يـــسبقونهم في

احتلال تلك المواضع. كان موضع بدر هو الموضع الوحيد هناك الذي توجد فيه المياه، واحتل من قبل المسلمين. وكانت مفارز الاستكشاف تتعقب القافلة، فبعدما ينهون عملهم هنا كانوا ينوون التعامل مع القافلة أيضاً، لأن أموالهم التي تركوها في مكة كانت موجودة فيها وكان عليهم أن يستردوها من الغاصبين. كان المؤمنون يخططون لهذا، ولكن إرادة الله تعالى كانت تقضي شيئا آخر، يجب أن يتلقى الكفر ضربة قوية تفقدهم توازنهم فلا يستطيعون بعد ذلك رفع رؤوسهم.

قسم رسول الله ﷺ جيشه إلى وحدات في اليسار واليمين والوسط، ولم يكن هذا معروفاً آنذاك. كان الوسط مؤلفاً من المهاجرين ومن رؤساء الأنصار الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت، فلو بقوا هم وحدهم في الميدان لما رجعوا عن الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، كان هؤلاء هم الذين شغلوا وسط الجيش وقلبه.

وضع على رأس قلب الجيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أثبت رشده في مواضع كثيرة، وكذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه. كان أحدهما على رأس المهاجرين والآخر على رأس الأنصار.[١]

كان علي رضي الله عنه أعظم الصحابة من زاوية فضله الخاص به. ومع أن هناك قناعة واتفاقاً عاماً على أن الخلفاء الثلاثة الراشدين الذين سبقوه كانوا أفضل منه من ناحية الفضائل العامة، ولكن وضعه الخاص وقرابته من النبي ﷺ وعلمه بأسرار آل ذلك البيت واستمرار نسل الرسول ﷺ من قبله[٢] وكونه تاج جميع الأولياء وقرة

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٦٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٣١٨

(٢) في الحديث: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي

أعينهم. من هذه الزاوية لم يكن له مثيل آخر، كان قد أسلم وعمره سبع سنوات فلم يصبه غبار الشرك والكفر. وعندما سأل رسول الله ﷺ أكابر بني عبد المطلب بعد أن شرح لهم أنه بعث إليهم خاصة وإلى الناس عامة قائلا: «فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟» فلم يقم إليه أحد، فقام علي ﷺ وكان أصغر القوم فقال له الرسول: «أجلسْ» وكرر الرسول دعوته ثلاثا وفي كل مرة يقوم إليه علي ﷺ، وفي الثالثة ضرب رسول الله يده في يد علي ﷺ.[1]

وعندما أصبح عمره سبع عشرة سنة كلفه الرسول ﷺ أن يبيت ليلة الهجرة في فراشه، أي اقترح عليه الموت، فقبله.[2] أجل، لم يتردد علي ﷺ في مثل هذه الأمور أبداً، لذا فقد كان هذا الشاب المملوء رجولة وشجاعة على رأس المهاجرين في بدر. فداك نفسي يا رسول الله! كم كنت مصيباً في اختيار الرجال!

أما سعد بن معاذ ﷺ فكان أيضا مثال الفضيلة والاستقامة، وكان إخلاصه معلوما من قبل الجميع، وعندما جُرحَ جرح الموت في المعركة كان ما قاله وهو على فراش الموت أبلغ شاهد ودليل على إيمانه، إذ قال وقد شخص ببصره إلى السماء: "اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابني اليوم طريقا للشهادة،

طالب.» («**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «**فيض القدير**» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «**تاريخ بغداد**» للبغدادي ٣١٧/١)

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١٥٩/١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٢٧/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢١٦/٣

ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة"[1] وقد توفي متأثراً بجراحه تلك وعندما شيعه الرسول ﷺ لمثواه الأخير قال عن جنازة سعد: «اهتز لها عرش الرحمن»[2] فما أصوب هذا الانتخاب وما أعظم هذا الاختيار!

كان هؤلاء هم الذين يسيطرون على قلب الجيش ووسطه، فإذا كان القائد يفضل الموت على العيش بذل فهل يفر جنوده؟ وعندما يضحي القائد برأسه ألا يضحي الجنود برؤوسهم؟ ثم إن الجنود أتوا إلى هناك وهم يبحثون عن الشهادة ويفتشون عنها. وكان رسول الله ﷺ يوجد في هذا القلب أي في المركز وفي الوسط محاطاً بمثل هؤلاء الجنود الذين أصبحوا له درعاً لا يصل إليه أحد، كلا لن يصل إليه أحد حتى يدوسوا على جثث كل هؤلاء الجنود.

كان إذن، على رأس مثل هذا القلب، وكان قد أعطى الراية إلى مصعب بن عمير،[3] فما أروع هذا الاختيار! في معركة أُحد قطعت اليد اليمنى لمصعب فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبله الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤) وحافظ على الراية حتى استشهد[4].

كان مصعب يقف في الوسط وراية بيضاء تخفق في يده.. كانت الميمنة والميسرة قد أخذتا مكانهما بانتظام، كانت القوة الأمامية جاهزة تنتظر الأوامر، والرديف في الخلف وعلى رأسهم قيس بن أبي سعد ﷺ، فلو قمت بقلع

---

(١) **البخاري**، **ال**مغازي، ٣٠؛ **مسلم**، الجهاد، ٦٥؛ **الترمذي**، السير، ٢٩

(٢) **البخاري**، مناقب الأنصار، ١٢؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٣؛ **الترمذي**، مناقب، ٥٠

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٤/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣١٨/٣

(٤) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٢٠/٣

أظافرهم ظفراً ظفراً لما تأوه أحدهم، كانوا بهذا التصميم والقوة والمقاومة.

كان جيش المسلمين يمثل نظاماً لم يشاهده أرباب القتال حتى ذلك الحين و لم يعرفه أحد من قبل، وكان هذا هو الأمر الذي قصم ظهر قريش. كان الرسول ﷺ قد أتى بنظام جديد ليعلن لهم موت الأنظمة القديمة العفنة وأنها دون فائدة.. كان الرسول ﷺ قد أتى بنظام جديد، أما هم فكانوا مقيدين بالنظام القديم، حيث كانت الفوضى سائدة في صفوفهم. ثم إن الرسول ﷺ كان على رأس جنده مما أعطى المسلمين قوة معنوية إضافية وقوة ديناميكية إضافية.. لقد سبق وأن عاهدوه قائلين: "والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزْرَنا."[1]

إن المهم جداً قيام الإمام بنفث الأمن والثقة في نفوس رعيته، وكان الرسول ﷺ يقوم بهذا على أحسن وجه، لقد قال لهم: «اَلْمَحْيَا مَحْيَاكم والممات مماتكم.»[2]

كانت كلماته هذه ترن في أسماعهم، وكان يتجول بينهم ويقوم في وسطهم، ثم إنهم جاءوا إلى هناك وهم يتعاقبون الركوب على الجمال (ويح نفسي ليته داس على وجهي و لم يدس على التراب)، وركب معه اثنان على جمله حتى وصولهم إلى بدر.. كانا حزينين ويقولان له: "اركب حتى نمشي عنك" ولكن الرسول ﷺ كان يقول لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[3] كان أمير الأمراء يقول هذا.. إنه إنسان بين الناس، يقوم ويجلس معهم ولا يفارقهم.. يجلس معهم ويأكل من الطعام نفسه

---

(١) **أُزْرَنا**: أي نساءنا

(٢) **مسلم**، الجهاد، ٨٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٣٨/٢

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد ٤١١/١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤

الـــذي يأكلونه ويشـــاركهم في كل شـــيء ولا يتميز عنهم.

أصبحت كلمة "المساواة" تتردد كثيراً على ألسنة الناس بعد قيـــام الثـــورة الفرنسية، فهل رأى الناس منذ ذلك اليوم مساواة؟ لم يعرف هـــذه المـــساواة سوى الإنسان الذي عاش في عهد النبوة وفي عهد الخلفاء الراشـــدين وذلـــك بفضل الرسول محمد ﷺ.

لقد فتحت السماء أبوابها له في أحلك أيامه واحتضنته وحفت به الملائكة، وكما قال الشاعر"نظامي"[1]:

لقد أصبحت أنصاف الأهلة   حدوات تحت حوافر جواده

قالت له الجنة: "لا تذهب، ابق هنا" ولكنه رجع إلى وسط الناس. يـــذكر الولي الكبير "عبد القدوس" هذه الحادثة فيقول: "وصل النبي محمد ﷺ إلى مقام لم يصله أحد، وأنا أقسم بالله لو أنني صعدت إلى تلك المقامات لما رجعت منها إلى الدنيا أبداً"، ويعلق على هذا الكلام ولي آخر فيقول: "هذه هي المسافة التي تفصل بين النبي والولي والتي لايمكن قطعها أبداً".. كيف يمكن قطـــع هـــذه المسافة؟ إنه الرسول محمد ﷺ.

أجل، فمع انه في مثل هذه المنـــزلة لدى الله ﷻ فهو يرى نفسه إنساناً بين الناس ويحب أن يكون بينهم. لقد شاهدت الإنسانية المساواة بواسطته، ولـــو وصلت الإنسانية إليها مرة أخرى فسيكون أيضا بفضله، وهذا الانتظار حقيقة

---

(١) **نظامي كنجوي** (١١٤٠-١٢٠٣): من كبار شعراء الفرس، من آثاره المشهورة مخزن الأسرار وخسرو وشيرين وليلى ومجنون.

نابعة من طبيعة علم الحقوق نفسه. هكذا كانت بادية العرب تنظـــر إلى هـــذا الجيش من جانبه هذا، وكان هذا شرفاً كبيراً بالنسبة للبادية.

قام الرسول ﷺ بتنظيم الجيش بنفسه وعين له مواضعه ثم حفر بئراً كبيرة في وسط الموضع حيث ملئت بماء يكفي الجيش حتى انتهاء المعركة، ثم قام بـــسد جميع الآبار الأخرى،[1] إذن، فسيأتي العدو دون تهيؤ معتمداً على وجود الآبار هناك، وعندما يرون ما حل بالآبار سيحسون بأن ظهرهم قد انقصم، وهذا ما حصل فعلاً.

وكما كان نظام الجيش جيداً، كان أسلوب حركته وقتاله جيـــداً أيـــضاً، فالجنود كانوا يعرفون جيداً أين يستعملون النبال وأين يستعلمون الرماح وأين يستعملون السيوف ومتى تدخل ميمنة الجيش وميسرته المعركة. ومتى تتـــدخل القوة الموجودة في الخلف.. كل هذه الأمور كانت مؤقتة توقيتاً ممتازاً.

أما المكان الذي أقام فيه الرسول ﷺ خيمته أو عريشه فقد اختير بدقة كبيرة تليق بقائد عظيم مثل الرسول ﷺ. إذ كان هذا الموضع يشرف علـــى ســـاحة المعركة إشرافاً جيداً، وكان يشرف منه على الجناحين الأيمن والأيسر وعلـــى القوة خلفهما. وكان بإمكانه من هذا المكان الاتصال بالجند وإيصال الأوامـــر إليهم بسرعة للسيطرة التّامّة على مجريات القتال.

كان كل شيء قد تم وستبدأ الحرب بعد قليل وسينتصر المـــسلمون علـــى أعدائهم الذين يفوقونهم بـــثلاثة أضعاف ويلحقون بهم هزيمة نكراء بخسائر قليلة

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٢/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٦/٣-٣٢٧

تبلغ أربعة عشر شهيداً فقط، وكما ذكرنا سابقاً فقد أعطى الرسول ﷺ المسلمين شعار المعركة وهو الهتاف بـــ "أحد، أحد"، وأحد اسم من أسماء الله الحـــسنى لا يجوز تسمية أي شخص بهذا الإسم، والأحد هو الواحد في ذاته ﴿قُـــلْ هُـــوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، فالأحد هنا إشارة إلى توحيد الألوهية وإلى توحيد الربوبية كذلك. فمثنى الواحد هو اثنان، ولكن لا يوجد مثنى للأحد فالأحد رقم فريـــد بين الأرقام لا يوجد له ثان أو ثالث، أي إن الله واحد أحد لا ثاني له.

كان الشعار في ذلك اليوم هو "أحد أحد"، وكلما هتفوا بهذا الشعار كأن صوتاً يأتيهم من وراء الغيب يقول لهم: لبيكم عبادي. فإذا كان هذا هو حكمة اختيار هذا الشعار فالحكمة الثانية هي أن أهل مكة كانوا يجهلون حتى ذلـــك الحين إطلاق الشعارات. وكان المؤمنون بفضل هتافهم بهذا الشعار يـــشعرون برابطة أقوى من جانب ومن جانب آخر كانوا يلقـــون الرعـــب في قلـــوب المشركين وهم يسمعون هذا الهتاف المدوي من أناس عليهم ملابـــس بيـــضاء كأنها الأكفان. كان المؤمنون يبحثون عن الموت وعن الاستـــشهاد في ســـبيل الله.. كان هذا هو غايتهم الوحيدة.

٥. المبارزة الأولى

ومع بقاء التنظيم العام، والاستيراتيجية العامة محفوظة فإن القرارات كانت تصدر تباعاً حول كل تكتيك جديد، وكانت كلها موفقة.

في البداية أخرج رسول الله ﷺ ثلاثة مبارزين، كان كلهم من الأنصار ومن الأفراد المهمين والمشتاقين إلى الشهادة، فلو تصدى لهم عنترة أو هرقل لما تردد أحدهم في مبارزته ومقاتلته. ولكن قريشا أبت بغرور وبكبرياء وقالت: أخرج

لنا يا محمد أكفاءنا من قومنا. كان هذا هو الغرور المهلك بعينه، وهو ما كان يتوقعه الرسول ﷺ منهم، ومع أننا لا ندري، فقد يكون هذا هو تكتيكه؛ فكتب السير لا تذكر هذا، ولكن مما لا شك فيه أن الأشخاص البارزين كانوا معيين في ذهنه فقال: «قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي!» كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يعادل كل منهم جيشاً.. كان اثنان منهما ابني عم له، والثالث عمه، أي إن أول من أرسله ليدق أبواب الموت كان أقرب الناس إليه رحماً ونسباً. وخرج ثلاثة مبارزين من بين الطرف الآخر، عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة. كان العدو على أعتاب هزة كبيرة، كان هؤلاء من أقوى رؤساء القبائل.. وعندما سقط الأخوان وابنهما صرعى بالسيف في وسط بدر هبطت الروح المعنوية لدى صفوف العدو. وكان هذا أولى علامات انجراره إلى الهزيمة. أما عبيدة فقد نال من أجل هذه المبارزة جراحا شديدة فأخلي من ساحة المبارزة وذهبوا به إلى ابن عمه رسول الله ﷺ المرشد إلى أبواب الجنة حيث أسلم الروح قريباً منه.[1]

هبطت الروح المعنوية لدى الأعداء بعد قتل عُتبة وشيبة والوليد، فقد كان هناك أناس قدموا إلى المعركة بإلحاح من هؤلاء الثلاثة. فكان موت هؤلاء الثلاثة سبب رعب وغيظ وفوضى لدى العدو.

٦. غايات متباينة

بدأ كل واحد ينعق بشيء مختلف، إذ اختل النظام وسادت الفوضى، وهذا جعلهم هدفاً لنبال المسلمين ورماحهم ثم لسيوفهم. كان رسول الله ﷺ قد

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٧/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٣/٣

وجه إليهم ضربة أطارت صوابهم فلم يعودوا يعرفون ماذا يفعلــون، ثم إنهــم عندما أتوا إلى بدر لم يأتوا إليه في سبيل مبدأ أو فكر أو مُثل معينة، بل جــاءوا يحدوهم الحقد والغضب، بينما جاء الرسول ﷺ إلى بدر في سبيل فكرة سامية وهدف نبيل، كان هدفه هو إعلاء كلمة الله. أجل، إن المبدأ مهــم جــداً، لم يكن أبو جهل وشيبة وعُتبة وابن أبي مُعيط وأُمية بن خَلَــف يعرفــون لمــاذا يقاتلون، لقد جاءوا بدافع الحقد والغيظ ليقتلوا الناس هناك، وكانوا يعتقــدون أنهم بعملهم هذا يعلون من شرف الكعبة ويزيدون من منـــزلتهم ومكانتهم في أعين الناس، لم يكن لهم أي مكسب بالنسبة للماضي، وما كان بالإمكــان أن يكون، ذلك لأنهم أتوا إلى هناك بدافع الحقد والغيظ والغضب.

أما المؤمنون فقد كانوا هناك من أجل تحقيق هدف سامٍ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونشرها في أرجاء الأرض. كانت القلوب تخفق بهذه المشاعر وترى أن الموت يهون من أجل تحقيق هذه الغاية، وذلك لأنهم كانوا يُستشهدون في سبيل الله، لذا كانوا ذاهبين للقائه، ومن يلق الله تعالى ويصل إليه لا يخسر شيئاً، بــل يكــسب الشيء الكثير. كان كل مؤمن يقاتل بهذه العقيدة ويستهين بالحياة بهذه العقيــدة، بينما كان الطرف المعادي يرى أن الحياة أهم شيء ومعقد جميع آمالهم.

كل همهم أن تطول حياتهم هذه. ولو تحقق انتصارهم في بدر لقام أبو جهل يوفي بنذره وهو أن يشرب الخمر ويرقص الراقصات ويلهو ويطرب،[1] بينمــا صلى المسلمون هناك ودعوا الله وتضرعوا إليه وبحثوا عن الوسائل والطرق التي تقربهم إلى الله تعالى.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٠/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٤/٣

كان هذا هو الفرق بين الجمعين. فأحدهما كان وكأنه يحلــق في الــسماء والاطمئنان يلفه، والآخر قد هوى إلى أخفض قعر في الدنيا وهو يتلوى مـــن الضيق والاضطراب.

٧. فرعون الأمة يصرع

يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع أحدٍ منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ قلــت: نعم وما حاجتك إليه؟ قال: "أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفــسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منـــا" فتعجبـــت، لذلك فعمزني الآخر فقال لي أيضا مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهـــل وهو يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الــذي تــسألان عنـــه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فـــأخبراه فقـــال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، قال فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاهما قتله»[1] وهكذا سقط فرعون هذه الأمة قتيلاً. أما الغلامان فهما معاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفراء. وفي رواية هما إبنا عفراء رضي الله عنها.

لقد اجتازوا مرحلة الجاهلية إلى الطرف الآخر، وفي أُحد لقوا ما صبوا إليه إذ لقوا الله تعالى. والحقيقة أنهم عندما أتوا إلى بدر أتوا لتحقيق مثل هذه الغاية السامية. والخلاصة أن رسول الله ﷺ كان يعلن الحرب على الــذين ناصـــبوه

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٨٧-٢٨٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٣٥٠-٣٥٣

العداء طوال دعوته، ومدوا يد الإساءة وخاصموا الحــق والحقيقــة والعلــم والعرفان، والأهم من ذلك أنهم خاصموا الإيمان والإسلام. ولكنــه في أثنــاء نضاله معهم كان يحسب خطواته جيداً فلا يخطو الا بحساب وبتوازن وبحكمة فلا يقع في أي هفوة أو خطأ، فكأنه جاء إلى بدر خمسين مرة وحارب العــدو هناك خمسين مرة، وكأنه طبق خطته واستراتيجيته هناك خمسين مرة، لأنــه لم يظهر هناك أي خطأ ولا أي هفوة، وكأنه ذهب إلى هناك في نــزهة، وهناك انتصر بعون الله ورعايته وتوفيقه.

كل نصر سيؤدي إلى نصر آخر، أي كان قد دخل إلى دائرة مثمرة (هذا ضد تعبير دائرة مفرغة) هنا يؤدي الخير إلى خير آخر، بينما في الدائرة المفرغة يــؤدي الشر إلى شر آخر، والتعقيد يؤدي إلى تعقيد آخر، والأخطاء تسلمك إلى أخطــاء أخرى، وهكذا يستمر الأمر... أجل، لقد هُيئت الأسلحة وتمت التعبئة بــشكل جيد، لذا فلا بد أن تحصل على نتائج جيدة، وكما قال الرسول ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير»[1] وكانت معركة بدر خيراً خالصاً.. خيراً للقلب وخيراً للفكر إذ فتح الله أبواب ألف خير للذين حملوا أرواحهم على أكفهم في تلك المعركة فكأنه قال لهم: اسلكوا أي طريق تشاؤن فسيكون النصر حليفكم.

٨. ثم الهزيمة

انقصم ظهر المشركين من هذه الضربة التي تلقوها من الرسول ﷺ، واستمر هذا الرعب عندهم مدة طويلة، ولولا أن بعض المشركين من أنصار أبي جهل وأمثاله قاموا بإثارتهم وتوجيه دعاية مكثفة بينهم لما تجرأ أحد منهم للخــروج

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٣٧؛ الرقاق، ٧ ؛ **مسلم**، الزكاة، ١٢١-١٢٣؛ **ابن ماجه**، فتن، ١٨

لقتال المسلمين يوم أُحد، وما كان خروج قريش للقتال يوم أُحد إلا بباعث من الانتقام والحقد، لقد بدأوا يقولون: لابد أن نقاتلهم مرة أخرى مهمـــا يكـــن الأمر، وحقد وإصرار هند بنت عُتبة مثال جيد على هذا، إذ كانت تقول لابي سفيان: لقد قتل أبي وعمي وأخي وليد وأنت قاعد في البيت كالنساء، وبـــدلاً من البقاء مع امرأة فإني أفضل الذهاب إلى بيت أمي. كانت النساء يبكين كل يوم ويشققن ثيابهن ويلطمن وجوههن ويثرن الرجال. وهـــذه الإثـــارة الـــتي استمرت عاماً كاملاً دفعت المشركين إلى الخروج لمقاتلة المـــسلمين في أُحـــد. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

أجل، لقد أنـــزل الرسول ﷺ في بدر ضربة قوية على رؤوسهم بحيث أنهم ما عادوا يفكرون في مواجهة المسلمين، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع أن يهدئ الحقد والغيظ في قلوبهم، وكان الرسول ﷺ قد أسدى إليهم بعد معركة بدر جميلاً ومعروفاً ليداوي نفوسهم المجروحة وكرامتهم المهدورة، فمثلا كان بمقدوره أن يأمر بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين اقتيدوا إليه والذين أساءوا إلى المسلمين إساءات كبيرة وآذوهم إيذاءاً شديداً، ولكن رسول الله ﷺ فضل أن يمن عليهم وأن يعفـــو عنهم. وقال: لنعف عن هؤلاء، وأخذ الفدية من بعضهم، وطلب من بعضهم القيام بتعليم عشرة من صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة.

٩. أهداف العفو عن الأسرى

أولاً: كان هذا معروفاً أسداه النبي ﷺ لهم. فطلب الفديـــة عـــن هـــؤلاء الأسرى ساقهم إلى قبول الفدية بكل سرور، ثم إن ما أعطوه لم يكن إلا جزءاً من أموال المسلمين التي بقيت في مكة والتي اغتصبوها منهم.

ثانيا: كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة حتى ذلك الحين نسبة واطئة، بينما كان أهل المدينة مرشحين لأن يلعبوا دوراً مهماً في تبليغ العلم والدين، لــذا كانت حاجتهم إلى تعلم القراءة والكتابة أكثر من غيرهم. ثم إن الفرق الثقافي بين أهل مكة وأهل المدينة كان سينقلب لصالح أهل المدينة بهذه الوسيلة.

ثالثاً: إن الذين سيبقون في المدينة لتعليم القراءة والكتابة سيجدون فرصــة للتعرف بالإسلام عن قرب، وعندما سيعودون إلى مكة سيكون كــل واحــد منهم داعياً إلى الله ورسوله في بيته، لأن الرسول ﷺ استطاع بمكرمتــه هــذه وتسامحه معهم أن يفتح قلوبهم.

تأملوا مثلاً ابن هشام وهو أخو أبي جهل فإنه لم يشترك في أي معركة ضد الرسول ﷺ حتى إسلامه، ذلك لأنه رأى من كرم الرسول ﷺ معه وتــسامحه ومروءته ما جعله يخجل من أشهار السلاح في وجهه، وكان هذا الأمر عامــاً تقريباً بالنسبة للجميع.

رابعاً: إن أهل هؤلاء الأسرى وأقرباءهم الذين قطعوا الأمل في حياة هؤلاء الأسرى عندما رأوهم والتقوا بهم وهم سالمون لم يتعرض أحد إليهم بأي أذى سرى إليهم شعور العرفان بالجميل، لأنهم كانوا يعرفون جيــداً مــدى الأذى الذي ألحقوه سابقاً بالمسلمين، ومع كل هذا فها هو الرسول ﷺ يتصرف مــع كبار قريش بهذا اللين وبهذه المروءة.. هذا اللين والمروءة التي لم يكن يظهرهــا المكي حتى لأولاده. وقد أدت هذه المروءة التي أبداها الرسول ﷺ نحو الأسرى إلى فتح قلوب الكثيرين من أهل مكة وجيرانهم من المتفقين معهم إلى درجة لو أن أبا جهل لم يقتل في المعركة لما بقي حتى في بيته أحد من الكفار غيره، لأن

كل شخص حتى في ذلك البيت لان قلبه حتى أبو سفيان –وكان من أشد بني أُمَيّة على الإسلام– بدأ يتصرف بمرونة ولين على الرغم من كونه زوجاً للمرأة التي فقدت أباها وعمها وأخاها. لهذا نراه لم يخرج إلى بدر الآخرة على الرغم من إعطائه قرار الخروج هذا بعد معركة أُحد. فلولا حصول هذه المرونة واللين لكان من المحتمل حدوث شرور كثيرة.

أجل، لقد دخل الرسول ﷺ بمعركة بدر إلى طريق خير، لأن من ملك القوة آنذاك كان يظلم ويفترس الآخرين كالوحش. وعندما تهيأت الفرصة لهند لاكت كبد حمزة وكأنها من القبائل الآكلة للحوم البشر، ولكنها لم تستطع أن تأكلها[1] ولو تيسر لها ذلك في بدر لما ترددت في فعل الشيء نفسه. ولكن المسلمين عندما تيسر لهم النصر في بدر أعطوا أمثلة سامية حول كيفية التصرف الإنساني. وبينما كان الباقون يصبحون هدفاً للنقمة في مثل هذه المواضع كان المسلمون يتألفون القلوب. وكان هذا نتيجة فطنة الرسول ﷺ، ونحن نتناول الجانب العسكري الممتاز للرسول ﷺ كبعد من أبعاد فطنته هذه.

١٠. أسباب النصر

إذا نظرنا إلى انتصار الرسول ﷺ في بدر من ناحية الأسباب فإننا نستطيع أن نقول بأنها كانت مرتبطة بما يأتي:

قام الرسول ﷺ بتعبئة عسكرية جيدة، فقد جاء إلى بدر بجيش مرتبط بقائد واحد يتحرك بموجب أوامره وإرشاداته، وكان هذا الجيش يملك روحاً معنوية

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٤٦٣/١

عالية جداً وإيماناً قوياً وراسخاً. بهذا الإيمان كانوا يشاهدون بساتين الجنة وهم في الارض، حتى أنهم لم يكونوا متأكدين وهم يمشون في قمم تلال بدر أهم يدوسون على تل في بدر أم على تل في الجنة.. بمثل هذا الإيمان ذهبوا إلى بدر. ثم إن الجنود كانوا مشبعين بروح الطاعة للأوامر الصادرة إليهم، فلو أُطيحَ برؤوسهم لما أقدموا على عمل دون أن يتلقوا أمراً بذلك. فالكل كانوا ينتظرون الأوامر من الرسول ﷺ. وكان صدور الأوامر من مركز واحد شيئاً مهماً في أثناء سياق المعركة، وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا الأمر فجعل صلاحية إصدار الأوامر مركزية وعلى أسس ثابتة ومتينة. ثم إنه أنشأ شبكة استخبارات جيدة، فمن موضع خيمته كان يستطيع أن يشرف على المنطقة كلها، وكان ينزل أحياناً إلى وسط الجند يتفقدهم، وعندما يشاهد أي ضعف أو خلل في أي موضع يذهب إليه ليعالجه. يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو"[١] صحيح أن الرسول ﷺ كان قريباً من العدو ولكن كان من يتجرأ للاقتراب منه من الأعداء يتهاوى وكأنه اصطدم بسور قوي من اللحم والعظم.

كان الرسول ﷺ يتجول بين جنده ويشجعهم ويرفع روحهم المعنوية ويقول لهم بأن الله تعالى معهم وأنه سيؤيدهم بنصره. بهذه الروح المعنوية العالية وبهذه الطاعة التامة والانقياد الكامل كان الجميع يتصرفون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة.

ثم إن جيش المسلمين كان منظماً بالقياس إلى ظروف وأحوال ذلك اليوم، فقد تمت تعبئته جيداً. فهناك الجناح الأيمن والجناح الأيسر ومركز الجيش

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٨٦/١

والقوة الاحتياطية. وكل هذه الأمور التي اهتم بها الرسول ﷺ كانت هي خلاصة العلم العسكري آنذاك. وقد وجه الرسول ﷺ جميع هذه الأمور ووضعها واستعملها في أماكنها الصحيحة. فمثلاً موضوع الطاعة، فالجندية هي الطاعة وهو أول ما يتعلمه الجندي المبتدئ في الجيش لأنها مهمة جداً، فإذا قيل للجندي: ازحف! زحف، وإذا قيل له: قم! قام. وكان الرسول ﷺ قد علم جنوده الطاعة قبل قدومهم إلى بدر، ثم نصب خيمة القيادة فوق تل من تلال بدر حيث يشرف منها على كل شيء، ويصدر منها الأوامر التي سرعان ما يطيعها الجميع. ثم إنه نفث في قلوب جنده إيماناً لا يتزعزع بحيث أن هذه المعركة كانت معركة بين الذين يستهينون بالحياة وبين الذين يتشبثون بها ويحبونها. أحدهما يرغب في قطف الورود من بستان الزهور، والثاني يرغب في سقي بستان الورود بدمه، يقول أحدهما:

"يكفي حملي لعبء هذه الحياة، فمتى تفتح أبواب الجنة لأدخلها وأتجول في ربوعها"، أما الآخر فيقول: "ليتني أرجع سالماً لكي أعب الخمر عباً وأشاهد رقص الراقصات وأتلذذ بلذائذ هذه الحياة." أجل، كانت المعركة بين فئتين.. فئة تستهين بالحياة، وفئة تعبد الحياة، كما كانت المعركة بين جماعة منظمة وبين مجموعة من الأشخاص غير المنظمين، وكانت نتيجة المعركة معروفة منذ بدايتها، لأنها كانت بين النظام وبين الفوضى. ففي صف المسلمين ما إن تحدث ثغرة في موضع ما حتى يسرع الرسول ﷺ إليه ويقوي ذلك الموضع، وكان المسلمون عندما يرون الرسول ﷺ بينهم تزيد شجاعتهم وتضحيتهم فلا تلبث أن تنغلق تلك الثغرة.

ولا شك أن من صفات وميزات أصحاب الدعوات قيامهم بتطبيق خطط مختلفة تكون ملائمة للظروف المستجدة دوماً. كان الرسول ﷺ يهيئ خططه في فكره بأدق تفاصيلها دون أن ينسى أي تفصيل، و لم يكن يعرف أسلوب الرسول ﷺ وخططه وكيفية تصرفه سوى أقرب قواده إليه. بينما كان العدو يحارب بأسلوب فوضوي بعكس جيش الرسول ﷺ الذي كان يعرف ماذا يفعل بالضبط وأين يوجه نباله وإلى أين يرمي رماحه. أجل، إن الاستيراتيجية مهمة جداً.

١١. ترك الجبهة ليس من شيمة المؤمن

وشيء آخر مهم وهو عدم قيام أي جندي بأي تصرف شخصي، بل عليه البقاء في موضعه وإن كان ذلك يعني الموت إلى أن يأتيه أمر آخر منه ﷺ حتى وإن كانت الهزيمة مقدرة عليه، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (الأنفال: ١٥).

أي يجب عدم الفرار وإن بقي في الجيش شخص واحد فقط، وأنا كلما تذكرت هزيمة "فيينا (Wien)" أحسست بألم حارق في أضلعي وأقول لنفسي ليت جنود "قره مصطفى باشا" ماتوا هناك حتى آخر رجل فيهم و لم ينسحبوا، فمن يدري فلعل الهزيمة.. كانت تنقلب إلى نصر وتسقط التفاحة الحمراء[١] التي لم نستطع قطفها طوال التاريخ. ولكن عندما أصبحت الحياة حلوة في أعين الجنود، والموت شيئاً مرعباً، وتراجع الإيمان والشوق إلى الجنة إلى المرتبة الثانية أو الثالثة عندهم، والأهم من ذلك عندما تكبر الدنيا في عين المؤمن وتكون

---

(١) المقصودة هي مدينة ''فينا''.

مهمة عنده، يسلب الله تعالى المهابة من المؤمنين، وعندما يخسر المؤمن مهابته يستطيع الكافر أن يغلبه وأن يسخر منه ويخدعه.[1]

لا يليق بالمؤمن الهروب من ساحة القتال، قد يقطع هناك إرباً إرباً ولكن لا يمكن له ولا يليق به الهروب، والتاريخ مليئ بآلاف الأمثلة على هذا، وكأن جميع هؤلاء تعلموا الشجاعة والرجولة من أسود بدر، ومعركة بدر مهمة جداً من ناحية أنها أصبحت مثالاً وأنموذجاً للمستقبل.

في معركة اليرموك حارب ٢٠ ألف بطل أمام ٢٠١ ألف من الجيش البيزنطي، كانت هذه معركة مشابهة لبدر، وقد تم النصر بالروح وبالمشاعر نفسها التي كانت سائدة في بدر. تأملوا مثلاً حال بطل واحد من بين آلاف الأبطال، إنه قَبّاث بن أَشْيَم، قطعت رجل هذا البطل في المعركة في وقت الظهر بضربة سيف ولكنه لم يحس بذلك، وعندما تم النصر للمؤمنين في وقت العصر أراد هذا البطل الترجل عن جواده، وعندما مد رجله كالمعتاد لينزل وقع على الأرض، وعندما حاول أن ينهض أدرك ما جرى له.. كانت رجله قد سبقته إلى الجنة... وبعد سنوات عندما أراد حفيده أن يعرف نفسه للخليفة عمر بن عبد العزيز قال له: "أيها الخليفة! إنني حفيد الذي فقد رجله في الظهيرة و لم يحس بفقدها حتى العصر."

---

(١) لعل المؤلف يشير إلى حديث: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومِن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفَنّ الله في قلوبكم الوهَن.» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال:«حب الدنيا وكراهية الموت.» (**أبو داود**، الملاحم، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٨/٥). (المترجم)

كانوا يقاتلون وهم لا يهتمون لا بالدنيا ولا بنعيم الآخرة، بل كـــانوا – مثلهم مثل الشاعر المتصوف يونس أمره– يقولون وقلوبهم متجهة لله وحــده: "أنت ضالتنا... أنت!"

الهرب في أثناء الحرب جريمة كبرى، وقد أعطى الله تعالى هنا مقياساً محدداً يحدد بموجبه ويقيم به الانسحاب نحو الخلف ويمكن به فقط أن يكون جــائزاً، ولا يستطيع أحد أن يفسر الانسحاب والتراجع تفسيراً ذاتياً وشخصياً وحسب هواه، والآية التالية هي التي رسمت إطار هذا الأمر: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُــرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَد بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٦).

وعندما رجع أبطال معركة مؤتة إلى المدينة لم يستطيعوا مواجهة الرســول ﷺ، لأنهم كانوا خجلين منه، إذ كانوا يعدون أنفسهم وكأنهم هربــوا مــن المعركة لذا، كانوا يرغبون في الاختباء عنه، ولكن الرسول ﷺ طيب خاطرهم واحتضنهم وسلى نفوسهم بتلاوة الآية الكريمة السابقة. وعندما قال له بعــض الصحابة: نحن الفرارون، أقبل إليهم وقال: «لا بل أنتم العكّارون[1].»[2]

أجل، إن كان ولا بد من التراجع والانسحاب فيجب أن يتم ذلك بأمر من القائد، وهذا ما تم في معركة مؤتة.

وشيء آخر مهم في هذا الخصوص وهو أن يكون القائد بــين جنــوده، والتاريخ يشهد بأنه متى ما كان رأس الدولة المسلمة على رأس جيش انتــصر

(١) **العكّارون**: أي الكرّارون.

(٢) **أبو داود**، الجهاد، ٩٦؛ **الترمذي**، الجهاد، ٣٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٧٠، ٨٦

مثل هذا الجيش في أغلب الأحوال، ومتى ما قعد السلاطين في القصور -كما حدث في بعض عهود الدولة العثمانية- بدأ التحلل والتسيب والتراجع، وقد قضى السلطان سليمان القانوني مدة حكمه البالغة ٤٦ سنة على ظهر جواده يتنقل من جبهة قتال إلى أخرى، وكان هذا من أهم أسباب احتفاظه بالدولة في القمة بعد معونة الله تعالى له.

لقد حاولنا حتى الآن شرح أن الانتصارات التي تمت في بدر وفي غيرها من المعارك والحروب إنما تمت بالاتكال على الله والثقة به، واتخاذ جميع الأسباب والعوامل الإيجابية ورعايتها. أجل، فبعد قيام الرسول ﷺ بجميع أنواع الأدعية الفعلية[1] فتح كفيه وتضرع إلى ربه تضرعاً حاراً، وعندما اتحدت هذه الأدعية وهب الله تعالى للمؤمنين نصراً مؤزراً.

حاولنا أن ننقل لكم -وإن لم يكن بشكل مفصل وعميق- معركة بدر من كتب المغازي والسير.

وقد ظهر أن الرسول ﷺ كان رجلاً عسكرياً رائعاً، إذ استطاع بحفنة من أبطاله المغاوير الوصول إلى الأهداف التي عينها له مولاه وربه دون أن يقع في أي هفوة أو تقصير أو خطأ، وعلى جبين نجاحه وانتصاره نقرأ على الدوام حقيقة أن "محمد رسول الله". لماذا كان منتصراً؟ لأنه كان رسولاً من عند الله تعالى، كان عسكرياً جيداً لأن الله تعالى رباه وعلمه. أجل، كان يتلقى تعليمه ودروسه من الله تعالى، لأنه كان مكلفاً بأداء مهمة خاصة، وكانت فطنته

(١) **الدعاء الفعلي**: هو الأخذ بالأسباب واستخدام القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون.

الكبيرة من أكبر النعم التي أنعمها الله تعالى عليه، والتي كان يقيّم بها ويفهم بها بكل دقة جميع الأوامر الإلهية. وهذه الفطنة والعقل الكبير والمذهل هو العقل الذي يفهم أوامر الله تعالى ومشيئته فهماً كاملاً لا قصور فيه. أجل، إن فخر الإنسانية هو الشخص الوحيد الذي فهم الحقائق الموجودة في كتاب الكون بشكل متسق مع القرآن الذي هو كتاب الله وأوامره.

فكل ما قاله القرآن هو نفس ما يقوله كتاب الكون الذي ظهر بقدرة الله وإرادته وتخطيطه ومشيئته، و لم يكن هناك مثيل للرسول ﷺ في التوفيق بين هذين الكتابين، أو بتعبير أصح فهمُ هذا التوفيق والتناسق بينهما وتطبيقه في الحياة.

ب- **معركة أُحد: المرتقى الصعب**

والآن لنرجع بعناية الله تعالى إلى أُحد لنتابع ذلك القائد الرائع والإنسان الكبير والنبي الذي لا مثيل له من زاوية معركة أُحد، والفطنة والفراسة التي أبداها هناك.

في أُحد تميز المؤمن عن المنافق والوفي عن الجاحد والشجاع عن اللئيم وعن الجبان، والمرتبطون بالنبي ﷺ ارتباطاً حقيقياً عن الذين في قلوبهم مرض.. معركة أُحد هذه سيتم ذكرها على الدوام بنوع من الأسى.

في أحد الأيام وبينما النبي ﷺ يعتلي سفح جبل أُحد ألقى إليه نظرة طويلة ثم قال: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»[1] وكأن هذا القول دفاع عن جبل أُحد يهب علينا من وراء أربعة عشر قرناً لمن يحمل في قلبه أي شعور بالأسى نحو جبل أُحد.

(١) **البخاري**، الزكاة، ٥٤؛ **مسلم**، فضائل، ١١

فرسول الله ﷺ لايريد منا إسناد الشؤم أو عدم الوفاء لجبل أُحد، لذا قال هذا القول ليكون برداً وسلاماً للقلوب التي يحيط الحزن بها للجرح الذي أصـاب كرامـة المسلمين في هذه المعركة، وهو يريد منا البحث عن أسباب أخرى لتلك النتيجـة. أجل، لم تجرح كرامة المسلمين في العهد النبوي في أي معركة مثلما جرحـت في تلك المعركة، هذا صحيح ولكن السبب في هذا لم يكن جبل أُحد، بل إن جبـل أُحد حفظ المسلمين وحماهم عندما أحاط بهم الذهول والاضـطراب، احتمـى المسلمون بجبل أُحد وتخلصوا بذلك من هزيمة تامة، هذا من زاوية الأسباب.

لقد كان السبب الحقيقي للهزة المؤقتة التي أصابت المـسلمين يكمـن في انسحاب بعض المنافقين من الجيش منذ البداية، وما أدى إليه هذا الانـسحاب من أثر سيء في الروح المعنوية للمسلمين، ثم عدم إلتزام بعض الصحابة بالأوامر بالمستوى اللائق بهم، وظهور ميل عندهم إلى جمع الغنائم حتى وإن كان هـذا الميل مشروعاً. ومهما يكن فلا شك أن هزة أصابت المسلمين يوم أُحد، ولكن ربط هذه الهزة بجبل أُحد لم يكن صحيحاً، لذا عبر الرسول ﷺ عن حبه لجبل أُحد لكي يزيل هذا الوهم من الأذهان.

والآن لنتناول موضوع ماذا حدث وكيف تم المجيء إلى أُحد ومـا هـي الأسباب التي أدت إلى هذه المعركة، وهل كان من الممكن اجتنابها؟ لنبدأ أولاً بتحليل معركة أُحد لكي تبين كيف أن الرسول ﷺ كان قائداً عسكرياً لا نظير له حتى في هذه المعركة التي بدت في نتيجتها وكأنها كانت معركة خاسرة.

لقد أدت هزيمة معركة بدر إلى إثارة حقـد مـشركي مكـة وغـيظهم ولاسـيما عند أولئك الذين قُتل أقرباؤهم أو أبناؤهم، فهؤلاء كانوا يـثيرون

أهل مكة على الدوام ويحرضونهم على الانتقام وعلى أخـذ الثأر.

ولم تكن جهود الإثارة منحصرة في مكة فقط، فقد كانت هناك جهود مبذولة في المدينة أيضا في هذا الاتجاه بوساطة كعب بن أشرف، وكان هذا يهودياً يحاول إلقاء الفتنة بين المؤمنين بأشعاره التي يشبب بها بنساء المسلمين ويفتري عليهن، بل إنه لم يتورع من مد لسانه القذر إلى الرسول ﷺ نفسه، ومع أن المسلمين كانوا يحسون بضيق شديد من هذا الوضع إلا أنهم كانوا دائماً يجابَهون بصبر الرسول ﷺ وحلمه ونظرته البعيدة.

بدأ المشركون أيضا بترتيب السرايا، فقد تعلموا هذا وبدأوا يحاولون بترتيب هذه السرايا التي كانت تقوم بأعمال النهب والسلب وإضعاف الروح المعنوية لأهالي المدينة. وكانوا أحياناً ينجحون في هذا واستمر هذا طوال سنة بعد معركة بدر، وبدأ المكيون يضايقون أهل المدينة مضايقه الجراثيم للجسم، لذا كان من الضروري حفظ المدينة -المؤهلة لأن تكون مهداً للمدنية- من جميع الجراثيم الضارة، وهذا ما فعله الرسول ﷺ. في هذه الفترة قُتل كعب بن الأشرف أعدى أعداء الإسلام، لأنه كان على رأس شبكة خائنة، فكان قتله ضرورياً وقام محمد بن مسلمة بهذه المهمة.[1]

وبدأ يهود بني قينقاع بإثارة المتاعب، فقد تحرشوا بامرأة مسلمة، وفي حادثة الشغب التي أعقبت هذا التحرش قتل رجال من الطرفين، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا للرسول ﷺ وهم مطمئنون إلى قلاعهم الحصينة: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لَتعلمَنّ

---

(١) انظر: **البخاري**، المغازي، ١٥-١٦؛ **مسلم**، الجهاد، ١١٩؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٥٨/٣

أناّ نحن الناس. فتوجه إليهم الرسول ﷺ لأنهم برهنوا أنهم أناس لا يمكن الاطمئنان إليهم وأنهم على استعداد دائم لإثارة الشغب والمشاكل. وقد ندم اليهود على فعلتهم واضطروا إلى الاستسلام ولكن الرسول ﷺ أخرجهم من المدينة لأنه لم يكن مطمئناً إليهم.[1] وبخروجهم أصبحت المدينة المنورة أكثر أماناً.

في هذه الأثناء كانت مكة تغلي، فقد أقسم أبو سفيان أن لا يمس الطيب حتى ينتقم من المسلمين، حتى أنه أتى مرة إلى المنطقة التي يسكنها يهود بني النضير وأشعل النار في بيت أو بيتين من بيوت المسلمين ثم هرب إلى مكة.[2]

كانت شبكة الاستخبارات التي أسسها الرسول ﷺ تمده على الدوام بجميع الأخبار أولاً بأول، ومنها علم أن قريشاً قادمة إليه بقضها وقضيضها، برجالها ونسائها، وكذلك برجال من بعض القبائل الحليفة معها. فجمع الرسول ﷺ كبار مستشاريه واستشارهم في هذا الأمر.

كان من رأى الرسول ﷺ أن يبقى المسلمون في المدينة ليمارسوا حرباً دفاعية، فكما واجهت قريش في بدر استراتيجية لم تألفها، كذلك كانت ستواجه هنا استراتيجية أخرى لم تألفها أيضاً، إذ هيأت قريش نفسها لحرب ميدانية مستفيدة من تجربتها في بدر، لذا فلو بقي المسلمون في المدينة ليمارسوا حرباً دفاعية لما استطاعت قريش فرض حصار طويل على المدينة ولاضطرت إلى الرجوع إلى مكة بعد انتظار يائس حول المدينة. كان رأي الرسول ﷺ

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٥٠-٥٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٤/٤

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٤٧-٤٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ٣/٤١٥-٤١٦

باختصار هو أن يبقوا في المدينة وأن يجعلوا الذراري في الآطام[1] فإن دخل عليهم القوم قاتلوهم في الأزقة ورموا من فوق البيوت.[2]

كان الرسول ﷺ يروم ما يأتي من هذه الاستراتيجية:

أ. إن الحرب لم تكن هدفاً من أهداف المسلمين، فهم ممثلون للأمن وللسلام.

ب. ولكن إن رام أحد الوقوف أمام نشر الحق فيجب إزالة هذا المانع ولا يترددون في هذا الخصوص عن تقديم أي تضحية.

ج. عندما يتعرض المسلمون للهجوم فإنهم سيحاربون دفاعاً عن الدين والعرض والشرف، وإذا لزم الأمر فإنهم يقتلون ويُقتلون من أجل هذه الغاية. وهذا من حقوقهم المشروعة.

كان من الضروري إعطاء مثل هذا الانطباع ومثل هذه الصورة عن المسلمين للناس الحيارى حولهم الذين كانوا يراقبون الأحداث الجارية.

١. الشورى قبيل أُحد

كان الرسول ﷺ يريد أن يحارب حرب دفاع، ثم رأى رؤيا في منامه، فقال لأصحابه: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً[3]

---

(١) **الآطام**: الحصون المبنية من الحجارة.

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٦٧/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣/٤

(٣) **الثَّلْم**: الخلل أو الكسر.

ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة» وكان تأويله لهذه الرؤيا: «فأما البقر فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل.» كما أوّل الدرع بالمدينة، لذا رغب البقاء في المدينة. إذن، فقد نبه الله تعالى نبيه وأعطاه إشارة وإيماءة لكي تكون الحرب حرباً دفاعية، وأما الثلم فكان إشارة إلى استشهاد أسد الله حمزة ﷺ.[1]

ثم كان هناك أناس لم يشتركوا في معركة بدر، فكان هؤلاء يدعون من الله أن يرزقهم الشهادة، وقد قبل الله تعالى دعاءهم. فمثلاً: كان أنس بن النضر يقول: "أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ لَيَراني الله ما أصنع" ويدعو من الله تحقيق حلمه هنا ويستعجل لقاء الله وهو مضرج بدماء الشهادة، كان أمثال أنس يحملون هذه الرغبة التي لا تقاوم طوال سنة كاملة ويدعون من الله تحقيق أمنياتهم في الشهادة، وما كانت مثل هذه الأدعية أن ترد من قبل الله تعالى، و لم ترد في الحقيقة.[2]

كان عبد الله بن جحش وعمرو بن جموح وسعد بن الربيع ﷺ من هؤلاء الصحابة الذين ينتظرون الشهادة ويسعون إليها ويحلمون بها كل ليلة. ولا ننسى هنا الصحابية سُميراء رضي الله عنها وأبناءها. هؤلاء هم الذين رجحوا كفة الشورى إلى جانبهم في ذلك اليوم.

كان الرسول ﷺ يرغب أن يتبنى المجتمع مبدأ الشورى وأن يترسخ هذا المبدأ فيه وأن يحل كل المسائل به. كان عليه أن يتصرف هكذا لكي يحس كل فرد بأن

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٦٦، ٦٧

(٢) **البخاري**، الجهاد، ١٢؛ **مسلم**، الإمارة، ١٤٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/١٩٤

القضية قضيته فيساندها بكل جهده لأنه اشترك في مناقشتها وأبدى رأيـــه فيهـــا. صحيح أن رسول الله ﷺ كان مؤيداً بوحي السماء، ولكنه مع هذا شاور أصحابه لكيلا يقول أحد من المسلمين فيما بعد لو أننا فعلنا كذا لكانت النتيجة كذا.. كان يتشاور مع أصحابه ويأخذ آراءهم ثم يطرح رأيه الشخصي.

ولكن المتحمسين من الشباب من الذين لم يشهدوا بدراً قالوا: كنا نـــتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير. وقال رجل من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟ وقال حمزة ﷺ: والـــذي أنـــزل عليك الكتاب لَنجادلنهم. وقال نعيم بن مالك: يا نـــبي الله لا تحرمنـــا الجنة فو الذي نفسي بيده لأدخلنها.[1]

لم يكن يريد تكرار استراتيجية استعملها سابقاً في المعركة الثانية، فعلى العـــدو أن يجابه في كل مرة مفاجأة جديدة، غير أن الشباب كانوا مصرين على الـــرأى الآخر، ودخل الرسول ﷺ ولبس للحرب وتقلد سيفه، وعندما رأى رجال مـــن ذوي الرأى ذلك قالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ.. فلما خرج عليهم قالوا: "يـــا رسول الله! إن شئت فاقعد." ولكن لقد تم اتخاذ القرار ويجب ألا يُنكص عنه لأنه:

أولاً: كان يعني إجراء ضغط على أفكار الآخرين، وهذا يعني الدخول إلى دائرة مفرغة. ثم إن الرجوع عن قرار متخذ حسب أفكار ومشاعر الأفراد ليس من شيمة أي قائد اعتيادي ويُعد خطأً كبيراً فكيف برســول الله ﷺ؟ فمـــن الطبيعي أن يتنـــزه الرسول ﷺ عن مثل هذا الخطأ.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٦٧-٦٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٤-١٥

ثانياً: لو تم الدخول في حرب دفاعية وحدث شيء غير متوقع، أو ضرر غير منتظر لارتفعت أصوات بعض الذين عارضوا هذه الحرب، كان هذا احتمالاً وارداً على الدوام.

ثالثاً: النجاح والسمعة والغنائم التي تكتسب في أي حرب دفاعية لا يمكن قياسها بما يتم الحصول عليه من الحرب الميدانية، وكان من الممكن استغلال هذا الأمر من قبل غير الراضين. لكل هذه الأسباب وما يشابهها فقد قال الرسول ﷺ: «لا ينبغي لنبي يلبس لأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله»[1] ذلك لأن الله تعالى عندما يقول له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) إنما يأمره بأن يكون شخصا غير متردد، ثابت القرار. أجل، فأي تردد سيقذف في قلوب تابعيه الخوف والقلق والتردد، وكل تحرك جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء ويسوق الجمهور إلى أفكار مختلفة، وهذا يؤدي إلى التحلل والتبعثر.

صحيح أن رسول الله ﷺ كان يود البقاء في المدينة، والدخول في حرب دفاعية. ولكن عندما رجحت كفة الحرب الميدانية في أثناء إجرائه الشورى قرر تنفيذ ما استقرَّ عليه نتيجة المشورة، و لم يكن من المناسب الرجوع عن هذا القرار مهما كانت النتائج. فلو كلفه تثبيت أسلوب الشورى سبعين ألفاً وليس سبعين شخصاً لما تردد في سلوك هذا الطريق.

كانت معركة بدر نصراً خالصاً، وكانت معركة أُحد نصراً كنصر بدر في الأقل.

---

(١) **البخاري**، الاعتصام، ٢٨؛ **الدارمي**، الرؤيا، ١٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٣٥١

٢. نحو أُحد

أصدر الرسول ﷺ أمراً فورياً بالتوجه نحو أحد، سيأخذ الجنود مواضعهم في أُحد وبذلك يمنعون الأعداء من الهجوم علـــى المدينـــة. وسيـــضعون النـــساء والأطفال في أماكن آمنة، فإن دخل الأعداء إلى المدينة فسيطوقون من الخلـــف وستشل حركتهم. صحيح أن القرار صـــدر آنيـــا ولكـــن كانـــت هنـــاك استراتيجيات بديلة.

عندما وصلوا إلى سفوح جبل أُحد أخذوا مواضع القتـــال، كـــان عـــدد المسلمين يبلغ ٧٠٠ رجلٍ، وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سَـــلول بـــالرغم مـــن مشاركته في الخروج للحرب قرر الرجوع برجاله البالغ عددهم ٣٠٠ شخصاً بحجة أن المسلمين لم يأخذوا برأيه،[١] كان عدد المسلمين اللابسين الـــدروع يبلغ المائة، وكانت الراية مع مصعب بن عمير ﷺ[٢] والزبير بن العَوّام ﷺ على رأس الفرسان، وحمزة ﷺ على رأس الراجلين.

وضع الرماة في مكان حساس ومهم، ليمنعوا الأعداء من الالتفاف خلـــف المسلمين ووضع على رأسهم عبد الله بن جبير ﷺ. وقال له رســـول الله ﷺ: «انْضَحِ[٣] الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبـــت مكانك لا نؤتَيَنَّ من قبلك.»[٤]

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٦٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٦/٤

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٨/٤

(٣) **انضح**: أي أرم رمياً حسناً.

(٤) **البخاري**، الجهاد، ١٦٤؛ **أبو داود**، الجهاد، ١٠٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٩٣/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٧/٤

قام الرسول ﷺ بكل ما يجب القيام به. ففي هذه المرة لم يرتب جيشه على شكل صفوف بل سحبهم إلى سفوح أُحد على شكل قوس لكي يحيط بالأعداء ثم يهاجمهم بالرماة ثم يرمي وسط جيش العدو بأسود المسلمين الظامئين إلى الشهادة أمثال ابن جحش ومصعب بن عمير وأبي دجانة وأسد الأسود حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

كان شعار المسلمين يوم بدر هو "أحد، أحد!" أما في يوم أُحد فكان "أَمِتْ، أمت!" لقد تمّ تغيير تكتيك المعركة وشعارها، هنا كان المسلمون يرومون المحافظة على أنفسهم في سبيل الله ورسوله أيضا مع محاولة إيقاع أقصى الإضرار بالأعداء.

تهيأوا للمعركة حسب الخطة الموضوعة، وهز رسول الله ﷺ سيفاً بيده قائلاً: «من يأخذه بحقه؟.» سرت موجة من الحماسة لدى المسلمين، كان كل واحد منهم يتمنى أن يأخذ السيف، ولكن رسول الله ﷺ الذي كان يعرف كل واحد منهم أفضل من نفسه، كان يفتش بعينيه عن صاحب هذا السيف، فإذا بأبي دُجانة يسأل: وما حقه يا رسول الله ﷺ؟ فقال الرسول ﷺ: «أن تضرب به العدو حتى ينحني.» فقال أبو دُجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه.

كان أبو دُجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها، فيعلم أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فاعتصب بها، إذن، فمن يستطيع أن يقف أمامه، وفعلاً لم يستطع أحد أن يقف أمامه. ونحن نعلم أن الحوار المذكور أعلاه جرى بين الرسول

ﷺ وبين أبي دجانة ﷺ[1] ولكن عندما انتهت معركة أُحد نعلم أن الكثيرين من جند الحق كانوا مثل أبي دُجانة ﷺ.

كان عبد الله بن جحش ﷺ يدعو من الله تعالى أن ييسر له مقابلة عدو يقتله، رحماك يارب! ما هذه الرغبة الأخروية الملتهبة في قلوب هؤلاء الأبطال! أما زئير حمزة ﷺ فكان يدخل الرعب حتى في قلوب الأسود.

كان إرسال فدائي الموت هؤلاء إلى صدر العدو خطة غير متوقعة من قبل قريش، فأبو سفيان الذي كان يتوقع حصول شيء شبيه بما حصل يوم بدر فوجئ بشيء جديد لم يره يوم بدر. وكانت صيحة المسلمين "أمت، أمت" يجعل المشركين يرتجفون ارتجاف من أصابته الحمى، ولأن المشركين لم يكونوا يتوقعون هذا فسرعان ما اندحروا، هذه هي الصفحة الأولى من معركة أُحد.

في هذه الصفحة الأولى كان رسول الله ﷺ قد وزع جيشه بين المدينة وجبل أُحد، أي وزع رجاله على سفوح جبل أُحد جاعلاً هذا الجبل في ظهره، ووزع الرماة في مكان مناسب قائلاً لقائدهم: «انْضَحِ الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتَينَّ من قبلك»

وفي رواية: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحو حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم[2] فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم.»[3] ثم

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٢٣/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٧/٤-١٨

(٢) **أوطأناهم**: علوناهم وأهلكناهم وقتلناهم.

(٣) **البخاري**، الجهاد، ١٦٤؛ **أبو داود**، الجهاد، ١٠٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٩٣/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٧/٤

أرســـل أســـوده إلى جيش العدو الذي ســـرعان ما اندحر وتقهقر.

اندحر العدو اندحاراً شنيعاً إلى درجة أنهم سرعان ما وجدوا أنفـــسهم في خيم نسائهم، واستطاع أبو دُجانة أن يصل إلى قلب جيش العدو حيث كانت هند زوجة أبي سفيان هناك على أساس أنه موضع مصان. شاهد أبو دُجانـــة شخصاً يحمس الناس تحميساً شديداً، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا امـــرأة، يقول أبو دُجانة: "فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة"[١]

أدى الصحابة الدور المعهد إليهم بنجاح كبير وقاموا بواجبهم على أتم وجه فرضي الله عنهم أجمعين. وشرحت سورة آل عمران ما قام به هؤلاء من نضال وكفاح ورسمت لوحات البطولة فأعطت أمثلة عن الأنبياء السابقين والأبطـــال الذين أحاطوا بهم، وفي أثناء رسم هذه الصورة تقوم بإيماءات إلى الأبطال الذين أحاطوا برسول الله ﷺ حيث تقول: ﴿وَكَأَيِّن من نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّـــتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَـــوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨).

هذه الآية تتحدث عن الربانيين، ولكن إن نظرنا إلى الموضوع من ناحيـــة تكرار التاريخ لنفسه فإنها تشير إلى الذين حاربوا في أُحد، فهذه الآيات نـــزلت بمناسبة معركة أُحد.

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠٩/٦

٣. مراحل أُحد

هناك ثلاث لوحات في أُحد.

أ - اللوحة الأولى

وهي اللوحة التي تعكس نجاح القرارات السريعة التي اتخذها رسول الله ﷺ، صحيح أنه تم إعطاء بعض الشهداء في هذه المرحلة، غير أن أبطال المسلمين أمثال حمزة وأبي دجانة وعبد الله بن جحش ﷺ حصدوا المشركين حصداً، ونالوا نصراً واضحاً وهزموا المشركين هزيمة نكراء.

حتى أن نساء المشركين حاولن إيقاف هروب المشركين صارخات فيهم ومتوسلات ألا يهربوا، لأن الهروب لا يليق بهم، ولكن لم تجدِ هذه الصرخات في إيقاف هروب جنود مكة.

تذكر المصادر التاريخية الموثوقة بأن عدد المسلمين في هذه المعركة كان سبعمائة مقاتل بعد انسحاب المنافقين، بينما كانت قوة الأعداء تقرب من ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا يعني أنهم كانوا أكثر من أربعة أضعاف المسلمين. أي أن كل مسلم كان عليه أن مقاتلة أكثر من أربعة من الأعداء في تلك المعركة. وكانت قريش قد جلبت معها النساء والأطفال، وكان هؤلاء يضربون الدف ويثيرون الجند.

كانت عدة جيش المشركين كاملة، ولكنهم مع كل هذا التهيؤ والاستعداد هُزموا أمام المسلمين كما هزموا يوم بدر. في هذه الأثناء وقع سهو كبير، وهو عدم رعاية الأوامر الصادرة. ونحن نطلق كلمة "زلة" على هذا التصرف، ذلك لأن

أصحابها كانوا من المقربين إلى الله تعالى إلى درجة كأنهم يرونه تعالى، كانوا مؤمنين ويعيشون الإسلام بالعمق الأخروي إلى درجة قد لا نستطيع نحن تصورها، كانوا يتعبدون الله تعالى وكأنهم يرونه، ويشاهدون كل شيء بشكل مختلف عما نشاهده نحن.. ولأنهم كانوا بهذا القرب كانوا محاسبين ومؤاخذين حتى على الأفكار التي تخطر على قلوبهم وعلى عقولهم. وكانت هذه الهزة امتحاناً للمقربين. أجل، لقد كان رسول الله ﷺ موفقاً حتى في أُحد وأنا لا أعد معركة أُحد هزيمة مثلما يعدها بعض المؤرخين. وأعد كلمة "هزيمة" كلمة ثقيلة وجارحة، وأفضل أن أقول في حقها: إنها هزة حدثت في مرحلة من مراحل معركة أُحد.

بـ - اللوحة الثانية

كانت الهزيمة قد حاقت بالعدو الذي بدأ بالهرب بشكل فوضوي، وكشيء طبيعي تذكر المسلمون معركة بدر، فقد هرب العدو يومذاك أيضا مثل هذا الهرب، لذا فقد ظنوا أن الأمر قد حسم لصالحهم مثل ذلك اليوم، وأن الدور الآن هو دور جمع الغنائم. فالجمال والخيول كانت هناك تنتظرهم بعد أن هرب العدو وترك كل أمواله، ولم يكن هناك في الظاهر أي مانع من جمع هذه الغنائم، لذا فقد اشترك الرماة أيضا في جمع الغنائم، ومع أن عبد الله بن جبير ﷺ ذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ إلا أنهم لم يفهموا المعنى الدقيق للأمر لأنهم لم يفسروا الأمر أو يفهموه على أنه يجب البقاء في أماكنهم حتى نهاية المعركة.. وها هي المعركة قد انتهت وانهزم الأعداء، كان من المحال في نظرهم أن يقوم جيش مهزوم بلم صفوفه والرجوع ثانية إلى القتال. هذه هي اللوحة الثانية لمعركة أُحد.

ج – **اللوحة الثالثة**

كان ترك الرماة أماكنهم يعني إحداث ثغرة في الجبهة، وما كان هناك احتمال أن يفوت هذا الأمر عن نظر قائد عبقري مثل خالد بن الوليد، لقد سنحت له الفرصة المواتية.

كان المسلمون آنذاك قد أغمدوا سيوفهم، وانشغلوا بجمع الغنائم، كما انسحب قسم منهم لأخذ قسط من الراحة في خيامهم. انقض خالد مثل الصاعقة وقتل بضعة أنفار من الرماة الذين بقوا في أماكنهم و لم يبرحوها والتف حول المسلمين من الخلف.. أخذ المسلمون على غرة تماماً.. علماً بأنهم كانوا قد فقدوا التوتر النفسي الضروري لجو المعركة، وهذا أفاد خالداً وسهل له عمله، فاستغل هذه الفرصة وحقق هذا الهجوم المباغت.

من المفيد هنا الإشارة إلى نقطة أخرى، وهي أن المسلمين عندما توجهوا إلى أُحد توجهوا وهم يحملون شرخاً، فالرسول ﷺ كان يريد البقاء في المدينة غير أنهم أصروا على الخروج، وكان هذا يشكل شيئاً سلبياً بالنسبة لهم، ثم إن الرسول ﷺ أمر الرماة بالتزام أماكنهم وعدم تركها ولكنهم تركوها، وهذه كانت زلة أخرى، والقرآن الكريم يتناول هذا الموضوع فيقول عن هذه الزلاّت: ﴿.. إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (آل عمران: ١٥٥)، أي قيل لهم في البداية أن يبقوا في المدينة فأصروا على الخروج منها، وقيل للرماة في أثناء الحرب، ابقوا في أماكنكم فلم يبقوا فيها، وتركوها لجمع الغنائم أو لمساعدة الآخرين في جمع الغنائم. فعدم استماعهم إلى النصيحة الأولى أدخل المسلمين إلى دائرة مفرغة من الأخطاء، وأدى إلى الخطأ الثاني أو الزلة الثانية،

ولو لم يمنع الله تعالى دوام عمل هذه الدائرة المفرغة لتعاقبت الأخطاء، ولكنه أراهم أن رحمته سبقت غضبه، فنشر رحمته على تلك الجماعة المقربة إليه.

ثم إنهم انشغلوا بجمع الغنائم على وهم أن المعركة قد انتهت، والحقيقة أن هذا العمل قد يعد عملاً اعتيادياً ولا شائبة فيه، ولكنه يعد زلة بالنسبة للأشخاص القريبين من الله تعالى -أي المقربين- حتى أن الله تعالى نبه نبيه وحبيبه على فعله في أخذ الفدية من أسرى بدر،[1] فبكى النبي ﷺ والصديق من هذ التنبيه ورآهما عمر ﷺ على هذه الحال فبكى لبكائهما.[2] لم يكن هؤلاء يميلون إلى الدنيا وما كان لهم أن يميلوا. بل كان عليهم أن ينبذوها.. إن أخذ الغنائم بالنسبة لأمثالنا شيء لا غبار عليه، غير أن قيام المقربين بجمع الغنائم من ذلك الميدان المضرج بدماء الشهداء سيؤدي في المستقبل إلى إحساسهم بندم كبير، ولكن شاء الله تعالى بتأديبه العاجل لهم أن يصونهم من تلك العاقبة.

ولكن فتحت هناك ثغرة أخرى. أجل، فكل مصيبة تُنسي المصيبة السابقة، فكأن المصائب بدأت تأتي وهي تتضاعف وتتزايد، فالمصيبة الأخرى التي كانت أعظم من كل المصائب السابقة كانت حصار المشركين لرسول الله ﷺ وانتشار نبأ استشهاده. وقع هذا النبأ كصاعقة أنست جميع المصائب السابقة. ولكن الله سلم إذ التف حول الرسول ﷺ جدار حصين من اللحم والعظم من المسلمين

---

(١) قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

(٢) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣١/١-٣٢

الذين سمعوا صوته قبل وصول الأعداء إليه. فكم من امرأة تحمل في يدها قـــرب الماء أو ضماد الجرحى خرجت لسقي المسلمين ومداواة جرحاهم أسرعت لنجدة الرسول ﷺ. كانت أُم عُمارة رضي الله عنها على رأس هؤلاء النـــسوة تـــسقي المسلمين وتضمد الجرحى. كان المنظر الذي رأته يجمد الدم في العروق.. كـــان الحصن المكون من اللحم والعظم حول الرسول ﷺ يتساقط شيئا فشيئا والأيدي الخائنة تتقدم نحوه خطوة فخطوة. كان واضحاً أن من المـــستحيل الوصـــول إلى الرسول ﷺ قبل أن يقطع هذا الحصن من اللحم والعظم أشلاءً وقطعاً.. كان كل سيف حاقد يسل من أجله، وكل سهم حانق يُرمى وكل رمح يُصوب نحـــوه، ولكن جميعها كان يصطدم بجسد مؤمن من المؤمنين المحيطين به، وجاءت لحظة لم يبق هناك ذراع لم تُبتر أو رأس لم يُقطع وبدأت جماعة من المـــشركين الحـــانقين يتقدمون نحوه، فقال الرسول ﷺ: «من لي بهؤلاء؟»

فرمت نسيبة رضي الله عنها ما بيدها وهرعت إليه قائلة: "أنا يا رسول الله!" أخذت مكانها في موقف الدفاع عنه وبدأت تذب عنه بـــسيفها ذات الـــيمين وذات الشمال، كانت قد أتت لمداواة الجرحى ولكن عندما اشـــتد الخطـــب انقلبت إلى لبؤة كاسرة، وبينما هي تقاتل عن الرسول ﷺ رأت ابنها وقد بترت ذراعه بضربة سيف، أسرعت نحوه وربطت جرحه ثم قالت له: "اذهب فقاتل أمام رسول الله" ثم رجعت إلى مكانها، كانت تقاتل قريبة من الرسول ﷺ حتى أنها تسمع همسه، ثم أصيبت بجرح غائر وعميق في ظهرها، كانت قد أرســـلت ابنها للقتال وها هي تقاتل بالقرب من الرسول ﷺ، فقال لها الرسول ﷺ: «من يطيق ما تطيقين؟» فقالت له: "ادع الله أن يجعلني معك يا رسول الله!" فـــدعا

الرسول ﷺ ربه أن يجعلها معه في الجنة،[1] فلما سمعت بدعاء الرسول ﷺ لها قالت بأنها تستطيع أن تقاتل أمامه حتى يوم القيامة.

كانت حياة هذه الصحابية سلسلة متصلة من المفاخر، فقد بايعت النبي ﷺ في العَقَبة ودعته إلى المدينة، وكانت سبباً في إسلام أفراد بيتها جميعاً، وقاتلت أمام النبي ﷺ في أُحد، وواجهت الموت في سبيله مواجهة الأبطال.. وعندما نزلت آية الحجاب حزنت لأنها رأت أنها لن تستطيع الاشتراك في الجهاد الفعلي بعد ذلك، وعندما ظهر الأنبياء الكذبة اشتركت في معركة اليمامة وتركت هناك ذراعها وابنها وعادت. أجل، لقد عاشت مراحل صعبة تفوق طاقة أي امرأة.[2]

كان أنس بن النضر –عم أنس بن مالك– يقاتل في أُحد ويصيح بالمسلمين الذين ظنوا أن الرسول ﷺ قد قتل: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على مات عليه رسول الله ﷺ"[3] تمت التحشيدات الأولى هنا، حيث رد هجوم الأعداء.. انتهت الهزة، وبدأ الرسول ﷺ يصدر أوامر جديدة إلى أصحابه الذين لم يفهموا سر أوامره الأولى، ويتبع استراتيجية جديدة، وهنا أمر الرسول ﷺ بالبحث عن سعد بن الربيع، فذهب رجل من الأنصار فوجده جريحاً وبه رمق، فسأل عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغْ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٩/٣–٨٧؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٤٧٩/٤

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٤٧٩/٤

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٩/٤

قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف" وبقى الأنصاري بجانبه حتى جاد بروحه، ثم جاء النبي ﷺ فبلغه حديث سعد.[1]

من الطبيعي أن الذين دعوا الله لنيل شرف الشهادة قد أجيبت دعواهم، فقد دعا أنس بن النضر ودعا عبد الله بن جحش ودعا حمزة بن عبد المطلب، دعا هؤلاء فاستجيبت دعواهم وطاروا إلى السماء شهداء، أما الذين بقوا و لم يستشهدوا فقد غرقوا في لجة من الدماء.. كانت أُحد تبكي دماً.. وكان هناك بكاء من نوع آخر.. بكاء القلوب التي ظنت أن رسول الله ﷺ قد قُتل.. فارت القلوب أسى وحزناً من أثر هذه الشائعة إلى درجة اهتزت منه روحهم المعنوية، وفكر بعضهم في الرجوع إلى المدينة لتهيئة مقاتلين آخرين وجلبهم إلى المعركة، وكان لبعضهم آراء وخطط أخرى فأخذوا يتحركون ذات اليمين وذات الشمال.. وبينما كانوا في أوج الذهول والاضطراب إذا بهم يسمعون صوت كعب بن مالك وهو يجلجل:

"يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله"[2] كانت هذه الصيحة بمثابة البعث بعد الموت في يوم أُحد إذ اسرع المسلمون إليه، وهنا تم التحشد الثاني، أي حول المكان الذي كان الرسول ﷺ موجوداً فيه.. هنا تكون سور آخر من اللحم والعظم، فبعضهم كانوا يحمونه بأجسادهم، وبعضهم كان يحاول إخراج حلقتي المغفر من وجنتيه، ويحاول بعضهم تجميع المسلمين هناك، ولكن الجميع

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٥/٤-٣٦؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٠/٣-١٠١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٩/٤

كانوا يحاولون صيانة الرسول ﷺ كما يصون المرء عينيه،[1] لم يكن هناك أحد لايفدي سناً واحدةً للرسول ﷺ بحياته.. التفوا إذن، حوله مرة أخرى، أقسموا بأنهم لن يتركوه أبداً بعد الآن.. وأمسك الرسول ﷺ والقائد الكبير بزمام الأمور بيده مرة أخرى، وليبدأ بتطبيق استراتيجية أخرى لا تؤثر فيها الأخطاء السابقة التي وقعت، لذا انسحب بهدوء مع المسلمين المحيطين به إلى خلف جبل أُحد ليهيئ هناك خطة تشكيل قوة جديدة، أي بدأ بالتخطيط للمرحلة أو اللوحة الثالثة التي ستنتهي بالنجاح.[2]

٤. من الهزة إلى النصر

هذه اللوحة الثالثة كانت نصراً واضحاً.. كانت نصراً لأن العدو تراجع للوراء وطاردهم المسلمون.. والحقيقة أن أبا سفيان نوى ترتيب هجوم آخر على المسلمين إذ نوى الهجوم على المدينة، ولكن صفوان بن أمية قال له: لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا[3] وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا.[4]

إذن، فبعد ما ظهر أنه خسران للمعركة، فقد حصل الرسول ﷺ على نصر واضح. وبهذا فكأن القدر كان يريد أن يلقن الصحابة الدرس التالي: إن الله تعالى وهب نبيه وحبيبه نصراً مباشراً بفضله وكرمه وعنايته، أما سيوفكم فليست سوى

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٤؛ **مسلم**، الجهاد، ١٠١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣-٨٩؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٩/٤

(٣) **حربوا**: غضبوا.

(٤) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١١٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥٨/٤

أسباب ظاهرية، وإلا فإن الله تعالى هوالذي ينقل رسوله من نصر إلى نصر.

هذه هي الانتصارات التي تحققت في بداية معركة أُحد ثم في نهايتها، بينما كانت هناك هزة عنيفة ولكن مؤقتة في وسطها.. ولكن الله تعالى لم يتخل عن رسوله حتى في أصعب اللحظات و لم يتركه وحيداً بل أعطاه النصر الذي وعده، والآية الكريمة التالية تتناول هذا الموضوع: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِه حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِن بَعْد مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَد وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران: ١٥٢-١٥٣)، هناك مقاولة بينكم وبين الله، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠) ولن يخل الله بهذا العهد، ولكن إن أخللتم به أخل الله أيضاً. ويقول إن الله تعالى حقق وعده في أُحد إذ كنتم تقتلون الكافرين بإذنه وبمشيئته، ولكنكم فشلتم عندما تنازعتم في الأمر وعصيتم، فبدلاً من الصبر قليلاً، فقد استعجلتم جمع الغنائم و لم تنتظروا الأوامر. أجل، فسيد الأنبياء كان في خيمته وينتظر الوقت المناسب لإعطاء هذه الأوامر، ولكنكم استعجلتم ودخل النزاع بينكم، فكل قرار جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء وتظهر مختلف الآراء حيث يسلك كل صاحب رأي طريقاً خاصاً به، فتنهار الوحدة والتماسك وعندما أراكم الله ما تحبون ظهر منكم العصيان، بينما لا يليق هذا بكم لأنكم من المقربين وقد يجوز للآخرين، ولكن لا يجوز لكم وأنتم موجودون حول هالة الرسالة النبوية، وتأخذون دروسكم من الرسول ﷺ مباشرة وتحضرون مجالسه وتسمعون إرشاداته، وقد سبق وأن اكتسبتم رضوان الله تعالى وعندما رأيتم شيئاً مما تحبون -كان هذا عرضاً من أعراض الدنيا وغير

ذي أهمية- ملتم إليه ولكن الله أخذه من أيديكم وحرمكم منه، ولـــو أنكـــم استهدفتم الآخرة لأقبلت إليكم الدنيا أيضاً، ولكنكم ملتم إلى الدنيا بوجه من الوجوه، كان عليكم أن تركزوا جهودكم لطلب الآخرة، أما الدنيا فكانـــت ستقبل عليكم كنتيجة طبيعية، أي لو أنكم طلبتم الآخرة لأقبلت إليكم راكضة وراءكم، ولكن لا تنسوا أن الله قد عفا وصفح عنكم.

كان الرسول ﷺ قد أحرز ما يمكن أن نعده نصراً بعد تلك الهزة العنيفـــة، فقد توجه أبو سفيان وجنده سريعاً إلى مكة بعد أن ألقى النبي ﷺ في قلـــوبهم الرعب، أما الرسول ﷺ فقد رجع إلى المدينة.

ج- **نحو حمراء الأسد**

بعد رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة، وصلته أخبار من مكة بأن أهل مكـــة بدأوا يتلاومون فيما بينهم حتى قال أحدهم: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شـــوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منـــهم رؤوس يجمعـــون لكم.[1]

كان رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة لتوه عندما جاءته الأنباء بأن أبـــا سفيان مقبل على المدينة، وذلك قبل أن يجد الجرحى وقتـــا كافيـــاً لتـــضميد جراحهم، وكان من المنتظر وفاة العديد منهم متأثرين بجراحهم. وكان قـــسم من الجرحى في وضع لا يستطيعون معه الحركة أو السير، ومع ذلـــك قـــاموا بالسير نحو حمراء الأسد.. كانت هذه خطوة تهديدية من قبل الرسول ﷺ ضد

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥٧/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٧/٣

مشركي مكة لإخافتهم وشل حركتهم، وأعلن في المدينة: «لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال»[(١)]

على إثر هذه الدعوة قام الجرحى حتى أصحاب الإصابات البليغة المنتظرين للمداواة والعلاج.. قاموا من الفراش وكأنهم أموات بعثوا من القبور، وتجمعوا في المكان المعين لهم.. أجل، لقد بعثوا عندما سمعوا صوت النبي ﷺ وهو يناديهم وكأنهم يصدقون قول الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما أحيا اسمه حين يُدعى دارس الرِّمَم

ولا يذكر التاريخ لنا أن رجلاً واحداً بقي دون إجابة دعوة الرسول ﷺ، كان من بين هؤلاء من فقد يده أو رجله، فخرج وهو يعرج أو يجر نفسه جراً بكل عناء. يقول أحد الصحابة من الذين شهدوا معركة أُحد: "شهدت أُحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ واللهِ ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحاً، فكان إذا غلب حملته عُقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون."[(٢)]

وعندما بلغت أخبار هذه المسيرة إلى قريش ارتعبت، ولم يضيع أبو سفيان وقتاً، إذ سرعان ما وجد السلامة في الهرب، لذا فإن الجيش المسلم الذي خرج

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٧/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥٦/٤ وما بعدها.

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥٦/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٧/٣

مما بدا أنه هزيمة وصل إلى حمراء الأسد وهو يطلق صيحات النصر، وبقي هناك ثلاثة أيام هي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ارتاح هناك وضمد جراحه المادية والمعنوية ثم رجع إلى المدينة.

لم يتضرر أحد في هذه المسيرة، ولكن أبا سفيان مع ادعائه أنه أحرز نصراً على المسلمين ما إن سمع بأن رسول الله ﷺ متوجه إليه بجيشه حتى ذعر وأسرع بالهرب إلى مكة، وكان هذا سبباً في خيبة الأمل عند جميع أفراد الأعـــداء.[1] وأنا أتساءل الآن: أيّ جانب يعد هو الجانب المنتصر في يـــوم أُحـــد وأيهمـــا المغلوب؟ هل المنتصر قريش الهاربة أم جيش المسلمين المهاجم؟ ليس هناك قائد عسكري آخر يستطيع قلب الهزيمة إلى مثل هذا الانتصار الواضح، إذ نجد هنـــا البصمة الواضحة لفطنة رسول الله ﷺ وختمه.

أيها القارئ الكريم! لقد حاولت تقييم استراتيجية الرسول ﷺ في معركـــة بدر وأُحد، لقد حاولت ذلك وعبرت عنه بلسان شخص غير مختص في هـــذا الموضوع، لأنني اضطررت إلى ذلك، فإن رأى القارئ في كلامي عيباً، فـــإنني أرجو المعذرة منه وأرجو العفو والصفح من الله تعالى.

١. الاستراتيجية المتغيرة على الدوام

والآن سأحاول عرض الموقف في بدر وفي أُحد الذي كانت بدايته ونهايتـــه نصراً، وكان وسطه هزة، وذلك بشكل موجز.

استعمل الرسول ﷺ تكتيكاً في بدر، وتكتيكاً آخر في أُحـــد، وآخـــر في

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٥٨-٥٩؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/١٠٨

معركة الخندق، وفي كل معركة خاضها كان له فيها تكتيك خـــاص، وهـــذا الأمر كان يقلب توقعات الأعداء، ويجعلهم في حيرة من أمرهم، كما أدى هذا إلى تقليل خسائر المسلمين، فمجموع عدد الشهداء المسلمين في جميع المعـــارك التي خاضها الرسول ﷺ كان مائة ونيفاً فقط. لقد كان زعيماً لا مثيـــل لـــه، عاش المسلمون في عهده في عهد سعادة حقيقية لا يمكن أن تتكرر. تصوروا أنه أعلن الحرب على الجميع بدءاً من عمه إلى العرب وإلى العجم، وأنه على الرغم من قيامه بكل تلك الحروب، وبإنجاز كل تلك الأعمال المهمة فإنه لم يعط إلا خسارة ضئيلة جداً.

أجل، لقد استعمل تكتيكاً آخر غير الذي استعمله في بدر، فقد اختـــار في أُحد فدائيين معينين أعطى لهم مهمات خاصة. وعين موضعاً خاصـــاً للرمـــاة ليمنع هجوم العدو من الوراء، ونظم بنفسه وبيده الكريمة الصفوف، وأثار فيهم الحماسة وشعور المنافسة، أي تصرف تصرفاً أثار به شعور الغبطة في نفـــوس الصحابة نحو بعضهم، فمثلاً أعطى أبا دجانة ﷺ سيفاً ليستعمله بحقه، وعندما بدأ أبو دجانة يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته الحمراء قال الرسول ﷺ: «إنها لَـــمِشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.»[1]

وانطلاقاً من هذا قال بعض الفقهاء: إن من المـــستحب أن يـــربي الجنـــود المقاتلون شواربهم، لكي يكونوا أشد رهبة في قلوب الأعداء، وقالوا: إنه كلمـــا أظهر الجنود عدم اكتراثهم بالموت في جبهة القتال، وكلما تفـــاخروا بـــذلك أو تبختروا كلما كان ذلك أفضل.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧١/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٧/٤-١٨

لم يستعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في بدر، ولكنه استعمله في أُحد، ودفع الصحابة للمنافسة والتسابق. كان الجميع يتمنون أن يعطي الرسول ﷺ لهم ذلك السيف الذي أمسكه بيده، ولكنه أعطى هذا السيف إلى أبي دجانة رضي الله عنه، وهذا جعل الفدائيين الآخرين يستقتلون في الحرب، وأصبح كل منهم مثل أبي دجانة رضي الله عنه.

والشيء الآخر الذي طبقه في أُحد و لم يطبقه في بدر هو وجود النساء في أُحد، وقد ذكرنا البطولة التي أبدتها الصحابية نسيبة رضي الله عنها. ولا نعرف على وجه اليقين عما إذا كانت فاطمة رضي الله عنها قد اشتركت في القتال، ولكننا نعلم من المصادر التاريخية الموثوقة أنها قامت بمسح الدماء عن وجه أبيها، وعندما رأت أن مسح وجهه بالماء يزيد من تدفق الدم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم.[1] إذن، فقد أحضر الرسول ﷺ بعض النساء إلى أحد لمساعدة الجرحى ولرفع الروح المعنوية عندهم.

٢. أسباب الهزة المؤقتة في أُحد

يجب الاعتراف بأن شروخاً حصلت في الفترة بين لوحتي النصر في أُحد، ونستطيع ذكر أسبابها:

السبب الأول: فضّل الرسول ﷺ منذ بداية الأمر البقاء في المدينة وتطبيق خطة دفاعية، ولكن حماسة الصحابة منعتهم من إدراك السر الدقيق في إطاعة هذا الأمر، بينما كان المفروض عليهم الطاعة المطلقة لأوامر الرسول ﷺ.

(١) **البخاري**، الوضوء، ٧٢، الجهاد، ٨٠

ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة للرماة في أثناء المعركــة، وهــذه المعارضــة لأوامره -وإن كانت مؤقتة- كونت هذه الهزة.

السبب الثاني: دخل هؤلاء الناس في تناقض مع عالمهم الــداخلي ومــع فطرهم، فالميل إلى الدنيا لم يكن من شيمتهم، وقد أثبتوا هذا عندما تركوا كل ما يملكون في مكة وهاجروا إلى المدينة. ولما كان الانشغال بالغنيمة وبــأموال الدنيا في تلك الساعة التي كانوا في أقرب موقع من الآخرة يُعد غفلة بالنــسبة للمقربين، فإن الله تعالى أراد أن يعاقب هؤلاء المقربين -بل أقرب المقــربين- عقاباً بدنياً. وكان هذا عقاباً خاصاً لأناس وصلوا إلى مستوى الصحابة. أجل، فما يمكن أن يعد حسنة وثواباً بالنسبة لأمثالنا يعد ذنباً بالنسبة إليهم، وذلــك على قاعدة: "حسنات الأبرار سيئات المقربين."

السبب الثالث: ويمكن أن نعد وجود عبقرية عسكرية كخالد بن الوليــد في الصف المقابل من أهم أسباب تلك الهزة.. فالله تعالى حافظ على صفة الانتــصار الدائم لخالد بن الوليد، الذي قدم فيما بعد خدمات جليلة للإسلام، وهذا كــان يعني مكافأة عأجلة لحسناته الآجلة، ذلك لأن الشجاعة والإقدام الذي كان ينفثــه هذا العنوان أو هذه الصفة -عنوان سيف الله أو صفة الانتصار الدائم- ســينقض فيما بعد على رؤوس الروم والفرس انقضاض المطرقة.. فلو هُزم خالــد في هــذه المعركة، لكان من الممكن ألا يستطيع خدمة الإسلام بتلك الروح العالية.[1]

السبب الرابع: كانت هناك دعوات حارة وملتهبة مــن قبــل الــذين لم يستطيعوا الاشتراك في معركة بدر، كانوا يدعون من الله على الدوام أن يمنحهم

(١) «**اللمعات**» لبديع الزمان سعيد النورسي (اللمعة السابعة) ص٤١

الشهادة، وقد قبل الله تعالى هذه الأدعية واستجاب لها، ومنحهم هذا الوسام الرفيع. ففي أثناء الهزة التي حدثت في أُحد عندما شاهد أنس بن النضر ﷺ الذين هزتهم شائعة وفاة الرسول ﷺ واضطرابهم قال: "يا قوم، إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد ﷺ لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء" ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل، لأنه كان يستعجل لقاء الرسول ﷺ الذي ظن أنه استشهد.(1)

أجل، لقد استُجيبت أدعية جميع من طلب الشهادة تقريباً، ثم من طلب الشهادة بحق وحرم منها؟ إذ بعد عصور عديدة دعا السلطان مراد الأول ربه قبيل معركة "كوسفو": "اللّهم اجعل أمة محمد عزيزة الجانب، واجعلني شهيداً"، واستجاب الله لدعائه، إذ حصل المسلمون على نصر ساحق حيث استشهد السلطان وهو يجول بين القتلى في ساحة المعركة بعد انتهائها بخنجر الصِّربي "ميلوش"(2) أي تحقق الشق الثاني من دعاء ذلك الإنسان العظيم، فاستشهد وذهب إلى رحمة ربه. فالله تعالى يتقبل هذه الأدعية الصادرة من أعماق القلوب. لذا، استجاب الله تعالى في موقعة أُحد لكل هذه الأدعية المتكررة من قبل الصحابة بالاستشهاد، وظهر من استشهاد كل هذا الجمع منهم وكأنه انكسار لجيش المسلمين.

---

(1) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٥/٤، ٣٦؛ **البخاري**، الجهاد، ١٢

(2) كان "ميلوش" أميراً صربياً وجرح في المعركة جرحا خفيفا، وقال إنه يريد مقابلة السلطان لكي يعلن إسلامه أمامه، وكان يخفي في ملابسه خنجراً أغمده في صدر السلطان عندما اقترب منه. (المترجم)

السبب الخامس: كانت معركة أُحد معركة بين صحابة الحاضر وصحابة المستقبل، أي كانت معركة بين رجال أسلموا وأصبحوا صحابة الرسول ﷺ وبين رجال سيصبحون في المستقبل من الصحابة، وسيلعبون أدواراً مهمة في الفتوحات الإسلامية في المستقبل، من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة وابن هشام. فلكي يتحول هؤلاء الذين ما كانت فطرهم وطبيعتهم تتحمل الهزيمة إلى الإسلام دون أن تجرح كرامتهم كان لا بد من وقوع انكسار مؤقت في معركة أُحد.

السبب السادس: كان هناك درس في التوحيد في الهزة التي حدثت في أُحد، فالانتصار في معركة بدر كان من الممكن أن يزيد من حصة الأسباب الظاهرية لدى بعضهم. صحيح أن الإحساس بالفخر وبالعزة أمام الأعداء إحساس بريء، ولكن مثل هذا الإحساس وإن خطر ببالهم لحظة واحدة يعد بالنسبة للمقربين من أمثالهم سيئة كما قلنا هذا سابقاً. فالهزيمة أو النصر مرتبطان بمشيئة الله تعالى، وهو الذي أهدى لهم النصر في بدر، فإذا قام بعضهم بإسناد النصر إلى أنفسهم دون الالتفات إلى قضاء الله ومشيئته عد ذلك شركاً خفياً. بينما كان هؤلاء بعيدين عن أخف شرك فراسخ عديدة، ومع أن الجميع كانوا مؤمنين بهذا ويتقبلونه على المستوى الفكري، إلا أن الله تعالى أحب أن يصل بالصحابة في هذا الموضوع إلى مستوى حق اليقين، فأحدث هزة عنيفة في صفوف المسلمين وهم في أوج النصر في معركة أُحد، وجعلهم في موقف المغلوبين، ثم أهدى لهم النصر في وقت لم يكونوا يتوقعونه أبداً، مذكراً إياهم بأن المشيئة والحكم له وحده: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ

وَتَنـــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْـــرُ إِنَّـــكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

لقد ظهرت لهم معاني هذه الآيات بأجلى شكلها أمامهم في أُحـــد، إذ عـــاش المسلمون هذه المعاني عملياً، ورأوا مشيئة الله وإرادته وهي تطبق أمام أعينهم. صحيح أنه قد جرى وحصل لهم بعض الأضرار البسيطة ظاهرياً، إلا أن ما تم اكتـــسابه في ذلك اليوم من زاوية الإيمان، ومن زاوية نور التوحيد الذي يـــضم في ثنايـــاه ســـر الأحدية.. ما تم اكتسابه في هذا الموضوع خفف وأزال تلك الأضرار الظاهرية.

لا ينكر أحد أن للسيف حقه، وللتعبئة الصحيحة حقها، وألها من الأسباب المؤدية إلى النصر، إلا أن الأساس هو إرادة الله ومشيئته، ذلك لأنه هو وحـــده القادر على كل شيء. أجل، فكأن الله تعالى كان يريد أن يقول للمـــؤمنين في أثناء تلك الهزة المؤقتة: لن تستطيعوا الوصـــول إلى شـــيء إن لم تأخـــذوا في حسبانكم قدرة الله تعالى وقوته، فها أنتم ترون أنه من الممكن أن ينقلب النصر إلى هزيمة، إذن، فكما أن قطف النصر محال إن لم يشأ الله تعالى ذلك، كذلك لا يمكن الخلاص من الهزيمة إلا بمشيئته.

كل مؤمن يحتاج إلى أخذ مثل هذا الدرس العملي في التوحيد، ومن المحتمل أن الصحابة أصبحوا لنا ممثلين لمثل هذا الدرس الكبير. ثم إن مثل هذا العقـــاب المؤقت الذي أعطى للمؤمنين جزاء مخالفتهم للرسول ﷺ، قد نبـــه المـــؤمنين وجعلهم أكثر حذراً وحساسية عند طرحهم لآرائهم في حضرة الرســـول ﷺ، ومثل هذا الأدب الرفيع الذي اكتسبه المؤمنون لم يكن ربحاً وكسباً بـــسيطاً أو هيناً: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَـــيْنَ

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولكن الأيام التي داولها الله تعالى كانت في الأغلب في مصلحة المــؤمنين، وستكون كذلك في المستقبل، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُــتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨) أي أن القرآن الكريم يبشرنا ونحن نعيش هذه الفوضى الشاملة بمستقبل مشرق، وقد حدث هذا في أُحد أيضاً، ولكن النتيجة والعاقبة كانــت نصراً للمؤمنين. أجل، لقد كانت هناك هزة في أُحد، هزة كانت لها حكمهــا العديدة، و لم تكن هزيمة على الإطلاق، كلا فقد كانت معركة أُحد معركــة انتصار وذات جوانب عديدة.

٣. إزالة روح الانكسار

بعد رجوع الرسول ﷺ من هذه المناورة إلى المدينة عقب معركـــة أُحـــد، استطاع أن يعيد للمسلمين روحهم المعنوية السابقة، أصبح المــسلمون أكثــر تجربة من السابق وأكثر حساسية وأكثر قابلية في فهم ما ينطوي عليه كـــلام الرسول ﷺ من دقة وحكمة.

غير أن الهزة المؤقتة التي تعرض لها المسلمون في المعركة ســرعان مــا ذاع خبرها حوالي المدينة مما أدى إلى زيادة طمع بعض القبائل العربية وبعض اليهود وتحريك شهيتهم. لذا، فقد أصبح من الضروري استعادة الكرامة التي جُرحت في معركة أُحد، وإظهار مدى قوة المسلمين وبأسهم الحقيقي، و لم يكن هـــذا العمل يتحمل أي تأخير على الإطلاق.

في السنة الرابعة للهجرة توجه الرسول ﷺ نحو بني النضير الذين تعاونوا مع مشركي مكة، وكانت هذه القبيلة اليهودية قد خرجت عن طور الأدب تجـــاه الرسول ﷺ، وحاولت اغتياله مرتين، وكانت هذه القبيلة قد اعتمدت علـــى مساعدة منافقي المدينة ومشركي مكة، فأعلنت الحرب ضـــد الرســـول ﷺ، واعتقدت أنها ستكون بمأمن من أيدي المسلمين خلف أسوار قلعتها الحصينة.

ولكنها اضطرت للاستسلام بعد خمسة عشر يوماً فقـــط مـــن الحـــصار، ووافقت على الجلاء عن المدينة على أن يأخذوا معهم ما يستطيعون حمله مـــن متاعهم، ومع هذا فقد كانوا سعداء إذ أنهم تخلصوا من المـــوت، لـــذا فـــإن الاحتفال الذي احتفلوا به قبيل تركهم المدينة كان احتفالاً لم ير أهل المدينـــة مثيلاً له، وإن الإنسان ليستغرب من ذلة هؤلاء الناس، الذين يحتفلون وهم على أعتاب مفارقة موطنهم ومساكنهم، بدلاً من الإحساس بالحزن والأسى.[1]

د- بدر الصغرى

كان أبو سفيان قد قال قبيل رجوعه من أُحد: إن موعدكم بـــدر العـــام المقبل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل نعم، هو بيننـــا وبينـــك موعد.»[2] لذا، فقد حضر الرسول ﷺ إلى بدر مع كامل جيـــشه في الوقـــت المحدد وأقام هناك ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ولكـــن لم يبـــد هنـــاك أي أثـــر للمشركين فرجع إلى المدينة. وانتقلت هذه الحادثة إلى التاريخ الإسلامي تحـــت

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٩٠/٣ وما بعدها.

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٠/٣ وما بعدها؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤٣/٤

اسم بدر الصغرى أو بدر الآخرة، إذ تحدوا المشركين الذين خافوا وجبنوا عن اللقاء، لذا فقد اكتسب المسلمون نصراً كنصر بدر وإن كان بمقياس أصغر. وكانت جماعة من بني عبد القيس قد أشاعت بين المسلمين أن أبا سفيان هيأ جيشاً ضخماً، وأنه توجه إلى بدر يريد بذلك إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الخبر لم يزد المؤمنين إلا إيماناً، والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) ورجع المسلمون من بدر الصغرى وهم في غاية الاطمئنان، لقد بدأ الأمن يستتب في الصحراء وبين القبائل مرة أخرى.

هـ- غزوة ذات الرِّقَاع

استمرت هذه المناورات طوال السنة الرابعة للهجرة. في هذه الأثناء قررت قبيلتا بني ثعلبة وبني مُحارب من غَطَفَان الهجوم على المدينة. وعندما وصلت أخبار هذا القرار إلى الرسول ﷺ خرج مع أربعمائة من المسلمين حتى وصل موضعاً يقال له ذات الرِّقاع، غير أن هاتين القبيلتين عندما علمتا بقدوم المسلمين خنستا واختبأتا في جحورهما، لذا فلم يقع أي قتال.[1] ولكن هذه الغزوة سجلت نصراً في قائمة المسلمين.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢١٣/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٩٥/٤-٩٦؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير، ١٩٢/٢

و- غزوة بني المصطلق من خُزاعة أو المُرَيْسِيع[1]

وفي سنة خمس من الهجرة وقعت غزوة الـــمُرَيْسيع، أو غزوة بني المصطلق، والمريسيع اسم لموضع يبعد عن المدينة تسعة فراسخ، حيث انقـــاد المـــشركون الساكنون هنا إلى إغراءات مشركي قريش وقرروا الهجوم على المدينة.. لـــذا، رتب الرسول ﷺ جيشاً وخرج به نحو المُرَيْسيع، وعندما بلغ بني المصطلق نبـــأ قدوم المسلمين هربوا ولم يبق في الميدان سوى أهالي المريسيع الـــذين قـــاتلوا المسلمين، ولكن الرسول ﷺ غلبهم، ولم تحدث خسائر في صفوف المسلمين إلا قيام أحد الأنصار بقتل الصحابي هشام بن صبابة خطأ إذ حسبه من الأعـــداء، أما الطرف المعادي فقد قتل منهم عشرة رجال. ورجع المسلمون إلى المدينة مع ٦٠٠ أسير و٢٠٠٠ بعير و٥٠٠٠ شاة. وهكذا أضاف الرســـول ﷺ نـــصراً جديداً إلى سلسلة انتصاراته.[2]

عند العودة من هذه الغزوة تسلل بعض المنافقين إلى صفوف المسلمين لكي يزرعوا النفاق والشقاق بينهم، ولكي يستفيدوا من الغنـــائم، حـــتى حـــاولوا استغلال حادثة صغيرة وخلافٍ بين حليف لأحد الأنـــصار وأجـــير لأحـــد المهاجرين حول أيهما أحق بسقي بعيره من بئر هناك، ولكنـــهم لم ينجحـــوا، فأسفر عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن مدى نفاقه عند العودة من هذه الغـــزوة عندما قال بمناسبة هذه الوقعة: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعـــزُّ منها الأذلَّ، وكان يشير إلى نفسه بأنه الأعز وإلى الرسول ﷺ -حاشاه- بأنـــه

---

(١) **المريسيع**: ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم.

(٢) «**كتاب المغازي**» للواقدي، ٤١٠/١

الأذل، وعندما بلغ هذا النبأ ابن هذا المنافق، وهو الصحابي الكبير عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ جاء إلى الرسول ﷺ وقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتلَه فلا تدَعُني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَى يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار" فقال له الرسول ﷺ: «بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا.» ثم إن ابنه عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عند مضيق المدينة فقال: فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك. فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة.[1]

وجرت حادثة الإفك حول أمنا عائشة رضي الله عنها التي كانت عفتها كعفة حوريات الجنة، والتي أكدت الآيات فيما بعد هذه العفة عند العودة من هذه الغزوة.[2]

ز- عامل الليل في الأسفار

كان الرسول ﷺ يختار الليل لجميع أسفاره.. ففي الليل سر آخر، ثم ألا يوصيه القرآن -وإن كان من طرف خفي- بذلك؟ والرسول موسى عليه السلام قاد المؤمنين ليلاً للهروب معه، لأن الله تعالى قال له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٠٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٧٨-١٨٢

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٠٩-٣٢١؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٨٢-١٨٥

(الدخان: ٢٣)، وأصدر الأمر نفسه إلى النبي لوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ (هود: ٨١)، وعندما أسري بسيد الأنبياء، ثم بدأ بسياحته السماوية التي تجاوز فيها جبريل عليه السلام، كان هذا الإسراء ليلاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

وهناك سفر ليلي لكل نبي تقريباً، فالمنازل تقطع بالليل وتصبح تلك الليالي ليالي الوصول والقرب إلى الله. والله تعالى يقسم بالليل في كثير من آياته، فأعمال البر والخير الوضيئة التي تعمل في ظلام الليل البهيم تجعل الليل أضوأ من النهار وأكثر منه نوراً. يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي الأرضرومي:

يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي

وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي

فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلا.. وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود.. هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات.. والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلى آفاق تقصر دونها المسافات.. أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل.. والذين قطعوا هذه المسافات قطعوها ليلا، أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق. فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ، فلا تدعوا لياليكم دون تهجد.. لا تدعوها لأن الرسول ﷺ لم يدعها. يقول محمد إقبال: "بقيت عشرين سنة في لُندن، في عالم الضباب، ولا أتذكر أنني تركت صلاة التهجد في أي ليلة من لياليها."

أجل، فمن يستغل الليل -حيث ينقطع كل صوت- سيجدكل كلام يتلفظ به صدى في وجدانه، وسيستطيع قطع المسافات. فكان الرسول ﷺ يقطع المسافات المادية والمعنوية في الليل، لذا كان يسافر ليلاً ويرتاح نهاراً وهكذا يفاجأ الأعداء به، إذ يرونه أمامهم فجأة فيذهلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (الصافّات: ١٧٧).

وهذه الآية تعرض مقطعاً صغيراً من هذا المنظر. أجل، كان إذا نزل في ساحة قوم أعداء بجيشه فهذا يعني أن أمر هؤلاء الأعداء يُعد منتهياً وساء صباحهم. كان الرسول ﷺ يهاجم في السحر..[1] ففي السحر كانت تظهر معتقدات أهالي تلك المنطقة، وذلك عند قيامهم -وعدم قيامهم- برفع الأذان وإقامة الصلاة. فالسحر هو الوقت الذي تهب فيه نسائم التجلي، يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حَقّي:

تهب نسائم التجلي في السحر فيا عينيّ! استيقظا عند السحر

وقت السحر مهم جداً لدى المؤمن، فهو الوقت الذي تهب فيه على المؤمن نسائم التجلي، وفيه يتهيأ لولوج عالم المعاني لأنه يتهيأ فيه للصلاة.

لذا، كان الرسول ﷺ يختار الفجر على الدوام، فبينما كان العدو ينهض من فراشه متثائباً، إذا به يرى المؤمن المتوثب نشاطاً أمامه. كانت هذه هي طريقته في أغلب الأحيان، فعندما هتف أمام أسوار خيبر: «الله أكبر! خربت خيبر!»[2] اهتزت

---

(١) **مسلم**، الصلاة، ٩

(٢) **البخاري**، الصلاة، ١٢، الأذان، ٦ ؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠؛ **الموطأ**، الجهاد، ٤٨

هذه الأسوار، ولكن لم يدر أحد كيف وصل هذا الجيش إلى هناك، لأنه ﷺ كان يقوم بغزواته بسرعة البرق، ويجد في سير متصل بحيث أن أسرع الجمال ما كانت تستطيع اللحاق به، وكانت غزوة بني المصطلق من هذه الغزوات السريعة. وعندما ذر النفاق بقرنه عند العودة من هذه الغزوة، رأى بفطنته الكبيرة أن أفضل وسيلة للحيلولة دون انتشار آثار فتنة النفاق هو إصدار الأمر بالسفر المتصل دون توقف. وبفضل هذا السير المتصل لم يجد المنافقون الفرصة لزيادة نار الفتنة،[١] ومع أن عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول كان يخطط في فكره أشياء وأموراً إلا أنه لم يجد الوقت الضروري لإنضاج أفكاره أو وضعها موضع التنفيذ. فالجميع كانوا في سير سريع وكأنهم يعدون عدواً، لقد تم الذهاب والإياب بهذه السرعة، فتعب الجميع تعباً شديداً، لذا فما أن أعطى لهم الإذن بالراحة حتى وقعوا نياماً حتى طلوع الشمس في اليوم التالي، ولعله المرة الأولى التي تم فيها أداء صلاة الصبح في الضحى.[٢]

استمر هذا حتى السنة الخامسة للهجرة. لذا، علمت القبائل أن أيّا منها لن تستطيع الوقوف وحدها أمام الرسول ﷺ، لذا قررت توحيد قوتها والوقوف معاً أمام الرسول ﷺ، وهكذا جمعوا قواهم وتوجهوا إلى المدينة.

ح- وقعة الخندق أو الأحزاب

في شوال سنة خمس من الهجرة. عندما أجلي بنو النضير عن المدينة ذهبوا إلى خيبر واستقروا هناك، ولكنهم بدأوا هناك بتحريض أهل خيبر ضد الرسول

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير، ١٨٠/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٠٢/٣-٣٠٥

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٨٠/٤

ﷺ وأرسلوا بعض زعمائهم إلى قريش وإلى قبيلة غَطَفَان، وكانت هاتان القبيلتان تسعيان بكل جهدهما للقضاء على المسلمين وتخططان لهذا، لذا كانتا على استعداد للترحيب بأي اقتراح يأتي من أي جهة حول هذا الأمر. ثم التحقت بهما قبيلتا بني سليم وبني أسد وبني مرة وبني فزارة وبني أشجع وبني سعد. أي أصبح الوضع مشابهاً لما جرى في معركة شنق قلعة" التي جلب إليها الإنكليز أقواماً عديدة من هنود واستراليين وأفارقة.. إلخ

اتفق اليهود والقبائل العربية المشركة للقضاء على الرسول ﷺ وعلى المسلمين. وأخيراً اتفق هؤلاء الأعداء على السير نحو المدينة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل. كان الرسول ﷺ قد حصل من قبل عن طريق شبكته الاستخبارية القوية على أنباء تلك الحشود، لذا جمع أصحابه واستشارهم حول خطة الحرب المقبلة، واختار من بين الاقتراحات المتعددة اقتراح سلمان الفارسي إذ أعجبه هذا الاقتراح الذي كان يقضي بحفر خندق حول المدينة ثم خوض معركة دفاعية من خلف هذا الخندق. وهذا التكتيك كان جديداً لم يشهده أحد حتى ذلك الحين هناك، وكانت قريش وحلفاؤها ينتظرون خوض معركة شبيهة بمعركة بدر أو أُحد، بينما كانت في انتظارهم مفاجأة واستراتيجية لم تخطر على بالهم قط. ووضع الرسول ﷺ حراساً حول موضع الحفر فمنع بذلك تسرب خبر أعمال الخندق، فهؤلاء الحراس ما كانوا ليسمحوا لأحد في المدينة أو لما حواليها بالتجول هناك، فتم الانتهاء من حفر الخندق في ظل من السر والكتمان، لذا عندما اقترب جيش الكفار من المدينة فوجئوا عندما وجدوا هذا الخندق أمامهم وذهلوا وأسقط في أيديهم.

بدأ الرسول ﷺ مع ثلاثة آلاف من أصحابه بحفر الخندق، واشترك الرسول ﷺ في الحفر، وكانت حصة كل رجل القيام بحفر طول ذراع من الخندق، وتم توزيع العاملين إلى مجاميع، كل مجموعة تضم عشرة منهم، وبدأت المنافسة بين هذه المجاميع. كان عمق الخندق معيراً بحيث أن الفارس إن سقط في ذلك الخندق لم يستطع الخروج منه مع فرسه، أما عرضه فكان بحيث لا يستطيع أمهر فارس قطعه قفزاً بفرسه.

هذا الخندق مطمور الآن تماماً، وكم كنا نتمنى لو بقي على حاله لنشاهد ذلك الخندق الذي شارك رسول الله ﷺ في حفره وفي نقل ترابه، ولا ندري مدى الصحة في الآثار الباقية لذلك الخندق، ولكن إن قام أحد المختصين بالعلوم العسكرية بتدقيق هذه الآثار وقال: "أجل، من المحتمل أن يكون الخندق هنا" عند ذلك يجب الاهتمام جدياً بهذا الموضوع.

أجل، شارك الرسول ﷺ بأعمال حفر الخندق ترغيبا للمسلمين وحثهم على طلب الأجر، فدأب فيه ودأبوا، وكان تصرفه هذا عامل تشويق ومنبع إثارة لهم على العمل، وكان يشوقهم أحياناً على المنافسة والتسابق، ويثني على المهاجرين تارة وعلى الأنصار تارة أخرى.

كان جنوده من الصحابة جائعين، قد ربط كل واحد حجراً على بطنه، أما الرسول ﷺ فحجرين، ولكن لم يكن للجوع ولا للعطش أن ينال من عزيمتهم ومن همتهم، بل كانوا ينشدون:

نحن الذين بايعوا محمداً　　　على الجهاد ما بقينا أبداً

وأجابهم النبي ﷺ:

اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة　　فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان الرسول ﷺ يشترك أحياناً معهم في هذا النشيد، وأحياناً يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا　　ولا تـــصدقنـــا ولا صلينـــا

فـــأَنـــزلـــنْ سكينة علينا　　وثبت الأقـــدام إن لاقيـــنا

إن الأُلَى قد بغوا علينـــــا　　وإن أرادوا فتنة أبـــيـــــنـــا

ورفع بها صوته: أبينا أبينا.[1]

عندما قام الرسول الأكرم ﷺ بتنظيم الصفوف جعل قمة تل سَلْعٍ[2] خلـــف ظهره، وأرسل النساء والأطفال إلى ملاجئ حصينة.[3] إني لست رجلاً عسكرياً، ولكني أعتقد أن تكتيك الرسول ﷺ صحيح من جميع جوانبه ولاسيما قيامه بإسناد ظهره إلى جبل سَلْعٍ، علما بأنه اتخذ هذه القرارات تواً ودون أي تباطؤ أو تفكـــير طويل، ومع ذلك كانت كلها قرارات صائبة.

عندما اتخذت وسائل وتدابير الدفاع عن المدينة وضع في الحساب احتمـــال قيام بني قريظة بالهجوم، لذا أودع الدفاع عن تلك الجبهـــة إلى جماعـــة مـــن

(١) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٩، المغازي، ٢٩؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٣-١٢٥، ١٣٠؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٠٦-١١٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٢٦-٢٣٠

(٢) **سَلْع**: الجبل المعروف بسوق المدينة.

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٣١

الصحابة على رأسهم سلمة بن أسلم.[1] أجل، لقد أخذ جميع الاحتمالات بنظر الاعتبار و لم يترك أي أمر للصدف.

كان هناك موضع ضيق في الخندق، يستطيع الفارس الماهران كان فرسه أصيلاً أن يقطعه قفزاً.[2] وقد يبدو هذا في الوهلة الأولى إهمالا، ولكن الأمر ليس كذلك، فقد تبدت هنا أيضا الفطنة المذهلة للرسول ﷺ، إذ أن أشجع فرسان المشركين وأفضلهم سيحاولون وسيجربون قطع الخندق قفزاً من هذا الموضع وسيجدون أنفسهم وسط المسلمين، و لم يحس أحد بهذا في أول الأمر، ولكن بعد مرور بعض الوقت وحدوث بعض التطورات وقع ما توقعه الرسول ﷺ، فقد بدأ أشجع المحاربين تجربة حظوظهم، وهلكوا واحداً إثر آخر.

ثم إن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ أحد بني عامر بن لُؤَيّ وضِرار بن الخطاب بن مِرداس أحد بني مُحارب بن فهر وعكرمة بن أبي جهل وهُبيرة بن أبي وهب المخزومي تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيؤا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم؟ ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقعوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: إنها لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها

---

(١) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٢/ ٤٦٠

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٣٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٢٠-١٢١؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ٢/ ١٨١

خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.[1] كان عمرو بن عبد ود أول من عبر الخدق، ومع أنه كان متقدماً في العمر إلا أنه كان يعد معادل مائة محارب، طلب مبارزاً فخرج إليه علي، فلما رأى أمامه شاباً حدثا استهزأ به، ونزل عن فرسه لأنه لم ير من اللائق بسمعته أن يقاتله وهو على ظهر الفرس، وبعد أن ضرب بسيفه فرسه وعقرها وقف أمام علي، وبدأت المبارزة حيث قام عمرو بالضربة الأولى التي كانت ضربة شديدة، واستقبلها عليّ فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وقابله علي بضربة قوية على كتفه مع تكبيرة أعقبتها تكبيرة المسلمين، ولو لم يمت عمرو من ضربة سيف علي ﷺ لمات من شدة تكبيرة المسلمين. وهز موت عمرو المشركين، كما أحدث فرحاً غامراً بين المسلمين ورفع معنوياتهم.[2]

وبعد عمرو جاء ضِرار وعكرمة وهُبيرة ولكنهم لم يصمدوا أمام ضربات علي ﷺ فهربوا،[3] وأخيراً أقبل نوفل بن عبد الله المغيرة المخزومي وكان من أشهر المقاتلين والفرسان عند العرب واستطاع عبور الخندق إلى الجهة الأخرى، فاستقبله علي –أو يقال الزبير بن العَوّام– ولكن نوفل سقط في الخندق وهو يحاول الهرب من علي، فبدأ المسلمون يقذفونه بالحجارة، وبدا لنوفل أن الموت بالحجارة لايليق به فصاح: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٠/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٥/٣؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٧٠/٢-٤٧١

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٥/٣-٢٣٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢١/٤-١٢٢؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨١/٢-١٨٢

(٣) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٧٠/٢-٤٧٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٠/٤

علي فقتله.[1] وكان هذا اليوم أشد أيام الحصار، ولكن عندما مر شهر فقد الحصار قوته ووهنت العزائم، إذ لم يكن من الهين إطعام عشرة آلاف من المقاتلين وتلبية احتياجاتهم.

عندما رأى بنو قريظة أن المشركين لم يستطيعوا اقتحام الخندق، وأن من فعل هذا منهم قُتل قرروا الهجوم على الحصن الذي وضع المسلمون فيه نساءهم، وأرسلوا أحدهم قبل الهجوم ليتجسس لهم، وقد لمحت صفية عمة رسول الله ﷺ هذا اليهودي وهو يتجول حول الحصن، فكمنت له ثم هاجمته فجأة وقتلته وجلبت سلاحه إلى الحصن، وعندما رأى اليهود أن الرجل الذي أرسلوه قتل توهموا وجود قوة عسكرية هناك فتخلوا عن فكرة الهجوم.[2]

كان أعداء الإسلام قد جاءوا وهم واثقون من أنفسهم كل الثقة، سينهون أمر المسلمين في بضعة أيام ثم يرجعون، ولكنهم أخطأوا في حساباتهم خطأ كبيراً، وعندما أدركوا ذلك لم يبق أمامهم سوى الرجوع وهم يجرون أذيال الفشل والخيبة.

وجرت الأقدار في أثناء الحصار ضد الكفار، فقد كان الشتاء على الأبواب وما كان سكان مكة يتحملون برد شتاء المدينة، ثم إنهم لم يكونوا قد تهيأوا للشتاء. وبدأت الريح تهب عليهم أياماً وليالي، ثم انقلبت هذه الريح إلى إعصار قوي بدأ يقوض الخيام ويقلب القدور، وما كان بإمكان المشركين أن يتحملوا

---

(١) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٤٩٦/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٣/٤، ١٣٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٩/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٤/٤؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨٢/٢

أكثر، وهذا ما كان، لذا أصدر أبو سفيان أمره بالرجوع وهو كاره.[1]

١. يوم الخندق في القرآن

يتحدث القرآن الكريم عن معركة الخندق تفصيلاً. فإذا أحببتم فإننا نستطيع متابعة تلك المعركة بين سطور الآيات، ثم نشير إلى الدهاء العسكري الذي أبداه الرسول ﷺ في هذه المعركة.

يقول القرآن الكريم حول هذه المعركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ۞ إِذْ جَاؤُوكُم مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً﴾ (الأحزاب: ٩-١٥).

وأشار القرآن إلى معنويات المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٢).

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٣/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/ ١٢٩، ١٣٢؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٨٤/٢

وكقاعدة عامة فإننا لن ندخل إلى التفاصيل التاريخية الموجـــودة في كتـــب السير، بل نتعرض لبعض هذه التفاصيل بالعرض، وهدفنا الأساسي إبراز ناحية الرســـالة لسيدنا محمد ﷺ وإظهارها، إذ كان صـــاحب فطنـــة ذات أبعـــاد متعددة، وأحد هـــذه الأبعاد هـــو بعده في الناحية العسكرية. فكما أوضحنا فقد أعطى أنموذجاً رائعاً في القيادة العسكرية في معركتي بدر وأُحـــد -علـــى الرغم من قصر باعنا في هذا الموضوع، لأنه خارج اختصاصنا- ولنـــا كـــلام موجز حول معركة الخندق أيضا لتوضيح كيف كان ﷺ عسكرياً لا مثيل لـــه في هـــذه المعركة أيضاً، فمعركة الخندق شـــاهد ومصدق لحكمنا هـــذا.

لقد تم إحراز نصر مؤزر في معركة الخندق التي حدثت في ظروف صـــعبة جداً، وتطورت الظروف التي هيأت النصر فيما بعد حسب ما علمه الله تعالى لرسوله. وقد استوعب الرسول ﷺ بفطنته العظمى هذه الظـــروف وأحـــوال المعركة التي علمها الله تعالى له بالوحي أو بالإلهام، ثم تصرف علـــى ضـــوئها أفضل تصرف، وطبق ما علمه أفضل تطبيق في معركة كانت الظروف فيهـــا صعبة جداً في النطاق البشري، لذا كان الوصول إلى النصر أمراً بالغ الـــصعوبة بل كان قريبا من الاستحالة، لذا فسنلقي نظرة على التكتيك الذي اســـتخدمه الرسول ﷺ في هذه المعركة التي تعد شاهدة على أن "محمد رسول الله".

٢. ما وراء معركة الخندق

١) كان عدد جنود العدو عشرة آلاف مقاتل، بينما كان جيش المسلمين عبارة عن ثلاثة آلاف مقاتل، أي أن العدو كان ثلاثة أضعاف المسملين، وهذا يعني أن على كل مسلم مقاتلة ثلاثة من المشركين، لذا كان تحويل هذه المعركة

من معركة ميدانية وجهاً لوجه إلى معركة دفاعية فطنة وذكاءاً كبيرين. وكما قلنا سابقاً فإن رسول الله ﷺ لم يكن يكرر أي تكتيك مع العدو مرتين، وهذا ما رأيناه في الخندق.

٢) لعب الخندق في تلك المعركة دوراً كبيراً في إيقاف العدو، لأن قريشا وحلفاءها لم يدر بخلدهم أبداً أنهم سوف يلقون مثل هذه المفاجأة التي أذهلتهم وقلبت حساباتهم.

٣) إن جعل جزء صغير من الخندق ضيقاً بعض الشيء بحيث يستطيع أن يعبره الفرسان الماهرون علامة دهاء وفطنة، لأنه أمكن بهذا اصطياد أمهر وأشجع وأقوى فرسان العدو مما أدى إلى ضعضعة الروح المعنوية لدى العدو، وارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين.

٤) عمل الرسول ﷺ في حفر الخندق بين المسلمين، وكان هذا دعماً وسنداً معنوياً لهم، وعندما صادفهم حجر قوي لم يستطيعوا كسره قال: «بسم الله» وضرب ضربة، فلمع بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله»، ثم ضرب ضربة ثانية فلمع بريق من ضربته فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض»، ثم ضرب الثالثة فبرق أيضا بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة.»[1]

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٠/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١١٦/٤؛ «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري ١٦٧/٣-١٦٨؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٧٩/٢

وهذه الكلمات التي قالها حينذاك أكسبتهم معنوية عالية بحيث لو اجتمع عليهم العالم كله -وليس عشرة آلاف فقط- لما ترددوا في قتاله.

٥) إن اختيار علي بن أبي طالب ﷺ لمقاتلة الفرسان الذين عبروا الخندق اختيار موفق يدل على الفطنة ويدل على أنه كان يعرف من يختار وأين يختاره.

٦) وضع المنافقين تحت مراقبة دقيقة بحيث لم يمكنهم من إلحاق أي أذى أو سوء مع أنهم كانوا يرغبون في ذلك، وهذا يدل على فطنته في اتخاذ التدابير الضرورية في درء الأضرار ومنعها.

٧) كان الرسول ﷺ يسعى إلى إطالة أمد المعركة ما أمكنه ذلك، ونجح في ذلك، واستفاد من إطالتها فوائد عديدة نستطيع أن نعدد بعضها:

الأولى: كان الوقت مقبلاً على موسم الشتاء، ولم تكن قريش وحلفاؤها قد استعدوا للشتاء، فلو بقوا أكثر لأنهى الشتاء أمرهم، وعندما يفكون الحصار ويذهبون، يذهبون وقد ضعفت قواهم وتداعت.

الثانية: كان العدو مضطراً إلى العناية بعشرة آلاف من المقاتلين وإطعامهم كل يوم، وكلما زادت المدة وتوالت الأيام دخلوا إلى أزمة مالية أكبر، وعندما اتحد الجوع والظمأ والبرد، أصبح الوضع غير محتمل بالنسبة لهم.

الثالثة: لم يكن من المتوقع أن يستمر الحلف في جبهة العدو طويلاً، هذا الحلف الذي كان حلفاً مصطنعاً قام على أساس واحد، وهو اشتراكهم في عداوة رسول الله ﷺ. وكان مرور كل يوم يُضعف هذا الحلف، بينما كانت جبهة الإسلام تقوى على مر الأيام وتزداد تراصاً ووحدة.

الرابعة: كان هناك زعماء عديدون في جبهة العدو، و لم يكن أي واحد منهم قادراً على أن يُسمع كلامه للآخرين ولا أن يجعل الآخرين يطيعونه، كانوا يشبهون الجيوش الصليبية، كان أبو سفيان –من الناحية النظرية فقط– هو قائد جبهة العدو وجيشه، ولكن هذا كان في الظاهر فقط، وكلما مرت الأيام بدأ الشقاق يدب بين هؤلاء الزعماء والأنداد وتتزايد النزاعات بينهم.

٨) كان نُعيم بن مسعود ﷺ قد أسلم سراً، وأوصاه الرسول ﷺ أن يخفي إسلامه مدة، حيث كلفه بالقيام بمهمات كبيرة وخطيرة جداً.

كان نُعَيْم شخصاً تحترمه وتثق به قريش واليهود كذلك، وقد أخبره الرسول ﷺ بأن الحرب خدعة وطلب منه أن يخذل الناس عنه، لذا ذهب نعيم إلى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية وقال لهم:يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغَطَفَان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغَطَفَان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم ذهب وأتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن

أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال:تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغَطَفَان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم ذهب إلى غَطَفَان وحذرهم التحذير نفسه، فلما طلب اليهود منهم الرهن قالت قريش وغَطَفَان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ. وأصروا على طلب الرهائن وأبت قريش وغَطَفَان ذلك وخذل الله بينهم.[1]

لم يكن قد مضى على إسلام نعيم بن مسعود سوى بضعة أيام، فانظروا إلى فطنة الرسول ﷺ إذ عرف أن نعيماً سيستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة وأنه أهل لها، وفعلاً قام نعيم بأداء تلك المهمة أفضل أداء.

٩) كانت الرياح والعواصف قد بدأت تضرب العدو ضربات موجعة، فأرسل الرسول ﷺ حُذيفة بن اليمان ﷺ ليعلم أحوال العدو واختاره لأداء هذه المهمة، فقد كان مستودع أسرار الرسول ﷺ وكان معروفاً بدقة تنفيذه

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٤٠-٢٤٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٢٨-١٣٠؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي، ٢/٤٨٠-٤٨٧

للأوامر، وقال الرسول ﷺ عندما أرسله: «يا حُذيفة! اذهبْ فادخل في القـــوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدثِنّ شيئاً حتى تأتينا.»

وتسلل حُذيفة إلى القوم ودخل بينهم، وسنحت له فرصة كان يستطيع فيها قتل أبي سفيان، إذ كان أبو سفيان قد أدار ظهره له، وقد حدثته نفسه للحظة أن يصيبه بسهم ويقتله، ولكنه تذكر توصية الرسول ﷺ له بألا يحدث شـــيئا حتى يرجع فتخلى عن تلك النية، أما أبو سفيان فكان يهتف علـــى الـــدوام: الرحيل! الرحيل! كان من الواضح أن قريشاً وحلفاءها كانوا يتهيأون للرجوع وهم يجرون أذيال الفشل.

ويشرح القرآن الكريم حالهم الأليمة هذه فيقول: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذينَ كَفَـــرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمنِينَ الْقِتَالَ وَكَـــانَ اللهُ قَوِيّـــاً عَزِيـــزاً﴾ (الأحزاب: ٢٥).

وعندما بدأ حُذيفة بالرجوع رأى هناك فرساناً عليهم عمامات بيضاء وملابس بيضاء، كانوا يتجولون بين الكفار فقال أحدهم لحُذيفة: "أخبر صاحبك أن الله قد كفاه" وعندما أخبر حُذيفة الرسول ﷺ بخبرهم قال بأنهم الملائكة.[1]

١٠) احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يتـــرك جبهـــة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة.. تصرف كأي فرد منـــهم، وشـــارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يشير كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام.

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣٢/٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٣/٣-٢٤٢

١١) كان مجموع الشهداء من المسلمين في مثل هذه الحرب الصعبة ستة شهداء فقط.[١]

١٢) قال الرسول ﷺ في ختام هذه الحرب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا.»[٢] وقد صدقت الأيام قوله هذا.

عندما تذكر معركة الخندق نجد أن هناك حادثتين مهمتين لا يمكن إهمالهما، إحداهما هي وفاة الصحابي الجليل وسيد الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه[٣] والحادثة الثانية أداء الرسول ﷺ أربع صلوات قضاءً.[٤]

في الحادثة الأولى جرح سعد بن معاذ رضي الله عنه في ذراعه، وبدأ الجرح ينزف دون توقف، واهتم الرسول ﷺ به فنصب له خيمة داخل المسجد، وكان يزوره على الدوام، كما كان الآخرون يزورونه أيضا ويبقون بجانبه، ذلك لأنه لم يفارق الرسول ﷺ منذ أن اهتدى إلى الإسلام، وكان الرسول ﷺ يعده شخصاً مميزاً، لذا عندما تم تعيينه حَكما في موضوع بني قريظة جيءَ به محمولا على مركب لأنه كان جريحا قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه.» ولم يقصر سعد رضي الله عنه في الإخلاص والوفاء للرسول الكريم ﷺ، عاش مخلصاً وفياً، ومات مخلصاً وفياً.. هذا الذي قال للرسول ﷺ يوم بدر:

"...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٤/٣؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي، ٤٩٦/٢

(٢) **البخاري**، المغازي، ٢٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٦٢/٤

(٣) **البخاري**، المغازي، ٣٠؛ **مسلم**، جهاد، ٦٥-٦٨

(٤) «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٥/١

من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَه منـــا كـــان أحب إلينا مما تركتَ علينا، وما أمرتَ به من أمر فأمرنا نتبع لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ بَرْك الغمَاد لَنسيرنّ معك."[١]

وفي ساعاته الأخيرة كان يدعو قائلاً: "اللّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه.. اللهم فإني أظن أنك قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم.. فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك.. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينـــهم فاجعلـــه لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة."[٢]

كانت المعركة قد انتهت ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته، ولكنه ما أن خطا خطوة إلى داخل البيت حتى ظهر له جبريل الذي ســـأله: "أوَ قـــد وضـــعتَ السلاح يا رسول الله؟" قال الرسول ﷺ: «نعم.» فقال جبريل: "ما وضـــعتْ الملائكة السلاح بعدُ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يـــا محمد بالمسير إلى بني قريظة."[٣] على إثر هذا أمر الرسول ﷺ بالمسير إلى بـــني قريظة، ولكي يعلمهم بمدى أهمية السفر ووجوب الإسراع فيه فقد عزم عليهم ألا يصلوا العصر إلا هناك.[٤]

كان بنو قريظة قد خانوا المسلمين –ولاسيما في أثناء معركة الخندق– وأرادوا

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٢/٣؛ «**دلائل النبوة**» للبيهقي ١٠٧/٣

(٢) **البخاري**، **ال**مغازي، ٣٠؛ **الترمذي**، السير، ٢٩

(٣) **البخاري**، الجهاد، ١٨، المغازي، ٣٠؛ **مسلم**، الجهاد، ٦٥

(٤) **البخاري**، المغازي، ٣٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٤٥/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣٤/٣

طعنهم من الخلف، وأرسلوا من يتجسس لهم حول حصن النساء لكـــي يقومـــوا بالهجوم عليه، ولكنهم لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك، هذا مع العلم أنهم كانوا قد اتفقوا وتعاهدوا مع رسول الله، نكثوا العهد وأعلنوا الحرب على المسلمين.

و لم يقف ذنبهم عند هذا الحد، بل فتحوا قلاعهم وحـــصونهم لاســـتقبال أعداء المسلمين –مثل حُيَيّ بن أخطب– الذين كان من المُبعدين السياسيين من قبل المسلمين، مع أن مثل هذا التصرف كان يُعد انتهاكاً للعهد.

بالرغم من كل هذا فلو اعتذروا للرسول ﷺ عندما أقبل إليهم وطلبوا منـــه العفو لكان من الممكن أن يصفح الرسول ﷺ عنهم، ذلك لأنه كان يميل على الدوام إلى التعايش الجيد معهم، غير أنهم سلكوا سلوكاً معاديـــاً للمـــسلمين وللرسول ﷺ، فقد عشعش السوء في سويداء قلوبهم. وعندما أسقط في أيديهم استسلموا، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون سعد بن معاذ ﷺ هو الحكم في قضيتهم. وقبل الرسول ﷺ شرطهم هذا، فقام سعد بن معاذ ﷺ مـــن فـــراش المرض، وجاء إلى الموضع الذي ينتظرونه فيه وهو راكب على حمار، فقال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم!» (أو قال خيركم)، فقعد عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «هؤلاء نـــزلوا على حكمك»، فأصدر حكم التوراة عليهم وهو أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، و لم يكن أمـــام الطـــرفين إلا قبول هذا الحكم.[1] وهكذا تطهرت المدينة من فتنة أخرى وأصبحت هي وما حواليها بلداً آمناً.

---

(١) **البخاري**، الإستئذان، ٢٦، المغازي، ٣٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٤٩-٢٥١

وهكذا حقق الله تعالى رغبة سعد بن معاذ وقبل دعاءه.. وبعد فترة قصيرة نزف جرحه وتوفي إلى رحمة الله تعالى.. كان قد استعجل الخروج إلى الحرب، فلبس درعاً تبين أنه ضيق عليه، لذا بقيت كتفاه عاريتين، وهناك أصيب بسهم سبب وفاته واستشهاده فيما بعد.

ط- **الغزوات الأخرى**

ألقينا نظرة سريعة حتى الآن على ثلاث غزوات من غزوات الرسول ﷺ البالغة ثماني عشرة غزوة،[1] وحاولنا تدقيق الناحية العسكرية لدى الرسول ﷺ. والآن سنلقي نظرة سريعة وبشكل عناوين رئيسة على غزواته الأخرى لنشاهد ألوانا من فطنته الكبيرة.

عندما دققنا صلح الحُديبية رأينا كيف استطاع الرسول ﷺ بإدارته الممتازة حل جميع المشاكل والمصاعب، كان من المؤكد وقوع حرب في الحُديبية، غير أن الرسول ﷺ استطاع تجنب الدخول في حرب لا يوجد فيها أي توازن بين القوتين، ففي الجبهة المعادية كان هناك أضعاف عدد المسلمين، على رأسهم رجال أمثال خالد بن الوليد وعكرمة، بينما كان عدد الصحابة يقارب ١٤٠٠ شخص غير مسلح[2] قد أحرموا يريدون أداء العمرة، فاستطاع الرسول ﷺ تجنيب أصحابه معركة قاسية وصعبة جدا، واستطاع بفضل من الله وعون منه أن ينهي هذه الأزمة بالنصر.

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أرقاما مختلفة لغزوات الرسول ﷺ وهنا أعطينا أرجحها.

(٢) هناك روايات أخرى تعطي أرقاما مختلفة لعدد الصحابة.

وقعت حادثة الحُديبية في السنة السادسة للهجرة، أي في وقت كانت مشاعر الشوق والحنين إلى مكة قد استولت على قلوب المهاجرين.. وحتى أبو بكر ﷺ وهو صاحب الإرادة الحديدية تأثر من فراق مكة تأثراً كبيراً وأنشد:

كل امرئ مصبَّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فمثلا بلال الحبشي –مع أنه لم يكن من مكة بل من الحبشة– عندما أقام بمكة أحبها إلى درجة أنه عندما هاجر إلى المدينة وأصابته الحمى هناك، بدأ يحن إلى مكة ويقول:

ألا ليت شِعري هل أبيتنّ ليلة بوادٍ وحولي إذْخرٌ وجليلُ

وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة وهل يَبدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيل [1]

واشتكى عامر بن فُهير مولى أبي بكر ﷺ فقال:

إني وجدت الموتَ قبل ذوقه إن الجَبان حَتْفُه من فوقه[2]

كان الشوق إلى الوطن قد استولى على جميع القلوب.. الشوق إلى مكة أم القرى.. كان قد مر على فراقها ست سنوات لم يستطيعوا فيها الطواف حول الكعبة، بينما كان جدهم إبراهيم عليه السلام قد قام بإصلاح الكعبة وتعميرها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

والكعبة التي تشير إليها هذه الآية كانت أول بناء على الأرض بناها آدم

(١) **إذخر وجليل**: نبتتان. **مجنة**: موضع كان سوقا في الجاهلية. **شامة وطفيل**: جبلان.

(٢) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٤٦؛ **الموطأ**، المدينة، ١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد، ٦/٦٥، ٨٣، ٢٢٢

عليه السلام، بناها أول نبي وأصلحها خليل الرحمن.. والآن كان الكفار يبعدون عنها أفضل أولاد إبراهيم عليه السلام وهو محمد المصطفى ﷺ، وتمر ست سنوات كاملة لا يستطيع فيها هذا النبي الكريم المشتاق إلى زيارتها والطواف حولها.. لم يكن يريد شيئا كثيراً.. كل ما كان يطلبه هو أن يسمح له ولأتباعه القيام بالطواف حول الكعبة بالكيفية التي وضعها الإسلام.

كانت الكعبة آنذاك مملوءة بالأصنام، كما كانت هناك أصنام عديدة حول الكعبة، كان طواف المشركين حول الكعبة شيئاً يدعو إلى السخرية ويخلو من معنى الطواف، لذا وصف القرآن طوافهم هذا بأنه مُكاء وتصدية،[1] كانوا يصفقون بأيديهم ويصفرون، وكانت النساء يطفن -ولاسيما في الليل- عاريات قد خلعن ملابسهن بحجة أنه لا يجوز الطواف بالملابس التي اقترفن الذنوب فيها.[2] كان طوافاً للرجال والنساء مختلفاً تماماً مستنداً إلى أسس أخرى لعهد آخر يصعب علينا فهمه وشرحه.

كان الرسول ﷺ يود بيان كيف يكون الطواف وكيف تؤدى العمرة، كان هذا هو غايته الأولى، أما الثانية فهي إظهار أن الكعبة ليست ملكاً للمكيين أو القرشيين فقط، وأن للآخرين أيضا حقاً فيها. والحقيقة أن لرسول الله ﷺ الذي سيعيد إلى الكعبة شرفها وشهرتها ومجدها ولجماعته المقدسة حقاً أكبر من الآخرين، والكعبة كانت قد أصبحت منذ مدة طويلة مثل محراب فارق منبره،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتهم عِندَ الْبَيت إِلاَّ مُكَاءً وَتَصدِيةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرونَ﴾ (الأنفال: ٣٥).

(٢) **مسلم**، تفسير، ٢٥؛ **النسائي**، المناسك، ١٦١

فكان رسول الله ﷺ يريد أن يقرب المنبر الذي وضعه في المدينة من المحراب، ذلك لأن الكعبة هي محرابنا الأبدي ومحراب النبي ﷺ قبل أي أحد، وقد توجه فترة من الزمن في صلاته إلى المسجد الأقصى لوجود الأصنام في الكعبة، ولكن نظره كان يتقلب في السماء إذ لم يكن يتحمل صرف وجهه عن الكعبة، فأنزل الله تعالى إليه يسري عنه ويبشره: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤).

كانت الفترة التي قضاها متوجهاً في صلاته إلى المسجد الأقصى فترة غربة وهجران بالنسبة إليه.. كانت الكعبة محرابه والمدينة منبره.. لذا، كان من الضروري أن تكون الكعبة في يد المؤمنين، وكان أداء العمرة يعد الخطوة الأولى في هذا السبيل، لذا كان يخطط لأداء عمرة على الأسس الإسلامية وحسب العقيدة الإسلامية وروحها وفكرها. لم يكن الحج قد فرض بعد، لقد فرض الحج في أواخر حياته! لذا، أدى فريضة الحج مرة واحدة، وأطلق القرآن الكريم على ذلك الحج اسم "الحج الأكبر"[1] وعلى العمرة "الحج الأصغر".

وقد انتشر بين جمهور الناس أن الحج الأكبر هو الحج الذي يصادف يوم عرفة فيه يوم الجمعة، ولكن اسم الحج الأكبر يطلق على الحج الذي يؤدى في أثناء موسم الحج، أما الحج الأصغر فيطلق على العمرة.

والغاية الثالثة له ﷺ كانت إظهار جماعته المباركة للقبائل، وأنها عندما تمر لا

(١) قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣).

تقوم بإيذاء أحد في طريقها، ولا تمس أحدا بضرر.. فلا تدخل بستان أحد، ولا تنهب داراً أو ملكاً لأحد.. سيرى الجميع أن هذا الجيش بعيد عن هذه الأمـــور، بينما كان من المعتاد آنذاك أن أي جيش بمثل هذه القوة يقوم بأعمـــال الـــسلب والنهب، بينما كان هذا الجيش جيش السكينة والاطمئنان.. فهم كانوا يمثلـــون الإسلام في هذا الحج أمام العرب جميعاً، وكان هذا شيئاً مهماً جـــداً وإيـــصالاً لرسالة الإسلام إليهم، لأن الذين شاهدوهم كـــانوا يقولـــون في أنفـــسهم في الأرجح: "ما هذا؟ نحن لم نر حتى الآن مثل هؤلاء الناس.. إنهم أشبه بالملائكة."

كانت هذه هي أهداف النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة، لذا فلم يأخـــذ الصحابة معهم سوى السيوف في القرب، ولم يحدث أي شيء حتى وصـــولهم إلى الحُديبية، وهنا جاء من يقول لهم أن قريشاً ستمنعكم بكل ما أُوتيتُ مـــن قوة ومن بأس، بينما لم يكن جيش السلام يريد حرباً ولا قتالاً، لأنهم لم يـــأتوا للحرب ولا للقتال، لذا اغتم الرسول ﷺ وحزن من هذا الموقف، فقد وعـــد أصحابه بأنهم سيؤدون العمرة.. وجاء الصحابة معه وهم في شوق لأداء شعائر العمرة مع رسول الله ﷺ وعلى الأسس والقواعد الإسلامية، فما فعلوه ســـابقاً في جاهليتهم لم يكن حجاً ولا طوافاً، والآن هاهم قد اقتربوا مـــن أداء هـــذه الشعائر على أساس إسلامي وتحت إرشاد وحي السماء وخلف رسول الله ﷺ.

اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحُديبية وأمر أصحابه بـــالتوقف، أمـــر بذلك على الرغم من إيمانه بنفسه وبشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجـــأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلـــك وفـــضل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبـــايع

على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام.. هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (الفتح: ١٨-١٩).

علم الله تعالى ما في قلوبهم، فلو قال لهم الرسول ﷺ موتوا، لماتوا، ولو قال لهم: ابقوا، لبقوا، ولو قال لهم قوموا، وطوفوا بالكعبة، لفعلوا ما أمرهم ولو لم يملكوا السلاح الكافي.

وأنزل الله سكينته عليهم.. فقد وعدهم -جزاء شهامتهم هذه- فتحاً قريباً، وهذا ما قاله لهم في القرآن. شيء واحد لم يتحقق كما كان الرسول ﷺ يتوقع، ولكنه تحقق بعد سنة واحدة، حيث جاءوا وطافوا بالكعبة حسب الشعائر الإسلامية واستلموا الحجر الأسود، أما ما سوي ذلك فقد تحقق جميعه، وشهدت البادية وتأكدت أن هذا الجيش يزرع الأمن والطمأنينة في كل مكان يمر فيه.. فهذا الجيش الذي خرج من المدينة متوجهاً إلى مكة مر بالكثير من القرى وخيام البدو والتقى بالكثير من الناس، وهذا الانطباع الجيد الذي زرعه في القلوب سيثمر، وسيلحق الكثير منهم بالمسلمين بعد سنتين أو ثلاث، وسيتوجهون معهم لفتح مكة. ثم إن قريشا وجميع المشركين الآخرين عرفوا أن الكعبة ليست ملكاً لقريش وحدها، بل إن للجميع حقاً فيها وفي مقدمتهم فخر الإنسانية ﷺ وصحابته.

والحقيقة أن قريشا اضطرت إلى قبول هذه الحقيقة في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ إذ قالت للرسول ﷺ: "وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها

بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكـب، الـسيوف في القِـرَب لا تدخلها بغيرها."[1]

كان هذا اعترافاً بالمسلمين كجماعة لها كيان خاص، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين ولاسيما لقريش، واقنعوا الجميع بهذا، وكان على الجميع الانقياد إلى الشعائر التي وضعها المـشركون، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحُديبية حرية المسلمين في أداء الحـج والطـواف حـول الكعبـة بشعائرهم الخاصة بهم. وهكذا حصل الرسول ﷺ على مثل هذا النصر مع أن عدد أصحابه كانوا لا يتجاوزون ١٤٠٠ صحابياً أمام جيش أكـبر منـهم بكثير.. النصر والنجاح في فتح قلوب الآخرين وفرض نفسه على الجميع.

فمثلاً قام عروة بن مسعود وسُهَيْل بن عمرو ممثلين عن قريش بالتفاوض مع رسول الله ﷺ ولكن عندما شاهدا مدى ارتباط الصحابة بالرسول ﷺ وحبهم له، وشاهدا تصرف الرسول ﷺ وشخصيته المهيبة وإيمانه القوي العميق بـالله تعالى وخشيته ومخافته منه وأحوال النبوة عليه تأثرا من ذلك تأثراً عميقاً وذاب الجليد المتراكم في قلوبهما وتغيرت زاوية نظرهما وأصبحا مرشـحين لقبـول الإسلام في مستقبل قريب. وعندما رجعا إلى مكـة أزالا الموقـف المتعنـت والصلب لقريش تجاه المسلمين وخففا جو الكراهية نحوهم، وهكذا فإن جـو التسامح الموجود في الإسـلام، وجو التعنت والعـنـاد لـدى المـشركين

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٩٢/٤-١٩٣؛ «**كتاب المغازي**» للواقدي ٥٧١/٢-٦٣٢؛ «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ٢٠٠/٢-٢٠٦

كان يؤدي إلى تغيير في مواقف البعض، وكانت هناك أمثلة حية على هذا.[1]

أجل، فالحائرون كانو يلتحقون بصف النبي ﷺ واحداً إثر آخر. وقد تكون الحُديبية نوعاً من التراجع إلى الخلف في الظاهر، ولكنها كانت في الحقيقة نصراً له ثمرات عديدة، ثم كان هناك أمر أمنِ جانبِ قريش وأمنِ هجومها وشــيء آخر: فقد تكوّن حِلف في هذا الصلح، إذ تحالف بنو بكر مع قريش وتحــالف بنو خُزاعة مع المسلمين، وكان من مقتضى الــصلح ألا يهــاجم أي طــرف الطرف الآخر، وهذا أفرح رسول الله ﷺ جداً.. إذن، فقد كانت هناك عــشر سنوات من السلام في البادية يستطيع خلالها إسماع صوت الإسلام وإيصاله إلى قبائل عديدة.

١. خيبر رأس الفتنة

ما إن رجع رسول الله ﷺ من الحُديبية حتى توجه نحو خيبر التي كانت بمثابــة دملة ورأس فتنة، فاليهود كانوا يغلون الفتن هنا، فأحياناً يتفقون مع بني النضير أو مع غَطَفَان أو مع قريش، كانوا على الدوام يحيكون المؤآمرات والفتن ضد المسلمين ويضعون خطط القضاء عليهم، كانوا هم الذين حرضوا قريشاً، فأصابعهم كانت موجودة في معارك أُحد والخندق.

لقد آن وقت تأديب هؤلاء، لذا هيأ الرسول ﷺ غزوة فجائيــة وســريعة ضدهم، والذين أتوا إلى خيبر هم الصحابة الذين لم يتمكنوا مــن أداء شــعائر العمرة، وكانوا يريدون أن يسدوا بالجهاد هذه الفجوة.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٢٥-٣٢٧؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٨٩-١٩١

أرسل الرسول ﷺ بعضاً من صحابته إلى غَطَفَان لكونها حليفة لخيـــبر،[1] وقد حسبت غَطَفَان أنها هي المقصودة بالحرب، لذا فقد انشغلت بمـــشكلتها، وانقطعت صلتها ومساعدتها لخيبر، غير أن خيبر كانت هي الهـــدف الأصـــلي للرسول ﷺ، وبينما كان يهود خيبر في قلق ويتساءلون: متى سيأتون إلينا؟! إذا بالرسول ﷺ يفاجئهم ويسير إليهم ليلاً فأصبحوا والرسول ﷺ والمسلمون قـــد أحاطوا بخيبر.

كان أهل خيبر في ذلك الصباح ينوون الذهاب إلى حقـــولهم وبـــساتينهم مثلما يفعلون كل يوم، لذا حملوا معهم المساحي والمعاول وعدد الزراعة، ولكن ما إن نـــزلوا من حصونهم حتى تجمدوا في أماكنهم دهشة وذهولاً.. فقد رأوا أمامهم جيشاً مسلماً على رأسه الرسول ﷺ.. وبعد أن تخلـــصوا مـــن وقـــع المفاجاة بدأوا بالهروب والرجوع إلى الحصون.. في أثناء ذلك كان الرسول ﷺ يهتف هتافات ترتج منها الأرض: «الله أكبر! خربت خيبر!»[2] أجـــل، لقـــد انتهت خيبر.. لم يكن هناك حل سوى الاستسلام، مع هذا احتاج الأمـــر إلى حيدر كرار يفتح باب خيبر أمام المسلمين.[3]

وهكذا تم فتح خيبر على يد علي بن أبي طالب ﷺ وكان الرسول ﷺ قد بشر بأنه سيعطي الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وكان

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٤٤-٣٤٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٢٠٧-٢٠٦

(٢) **البخاري**، الصلاة، ١٢، الأذان، ٦؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٥٠٨-٥٠٩

هذا الرجل هو علياً المرتضى كرمَّ الله وجهه.[1] وهكذا استسلمت خيبر للمسلمين في مدة قصيرة وبأقل الخسائر.

كانت أمنا صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها من بين أسرى خيبر، وكانت محظوظة إلى درجة أنها أصبحت زوجة الرسول الكريم ﷺ. ولهذه المرأة العظيمة إسهام كبير في الدعوة الإسلامية بين قومها بعد إسلامها،[2] واستعملت نفوذها ومكانتها السابقة في هذا المجال.

٢. مفخرة مؤتة

وهذه الغزوة كانت غزوة مليئة بالبطولة وإن كان الرسول ﷺ غائباً عنها. أجل، فلن نستطيع إهمال ذكر غزوة مؤتة، وهي الغزوة التي كانت سبباً في وصول اسم الإسلام إلى أسماع العالم. هذه الغزوة التي استشهد فيها أحب الناس إلى الرسول ﷺ ودفنوا هناك، زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ﷺ جميعاً. استشهد هؤلاء كلهم في مؤتة وطاروا من هناك إلى الجنة. وتعد مؤته غزوة ظهر فيها الدهاء العسكري لخالد بن الوليد ﷺ، وكانت أول معركة له في صف الإسلام أثبت نفسه فيها.[3]

أثناء فترة الصلح أرسل الرسول ﷺ الرسائل إلى الملوك ورؤساء الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، فكانت إجابة بعضهم إيجابية، وبعضهم سلبية،

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٣٨؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤؛ **الترمذي**، مناقب، ٢٠

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٣٤٦-٣٤٧؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٤٤-٣٤٥

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٥، المغازي، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٤، ٨

وردّ بعضهم رداًّ قبيحاً تجاوز فيه حدود الأدب واللياقة.[1]

كان رد شُرَحْبِيل أمير بُصْرَى من هذا الصنف الأخير، ومع أن شرحبيل بن عمرو كان عربياًّ إلا أنه تنصر، ولكي يبين مدى تعصبه لدينه أمر بقتل حارث بن عمير ﷺ رسول النبي ﷺ إليه، و لم يكن قتل رسولِ رسول الله ﷺ ذنباً يغتفر، كما كان أمره خطيراً بالنسبة لتداعيات هذا العمل لدى رؤساء الدول الآخرين، لذا جهز الرسول ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل جعل على رأسه زيد بن حارثة –طليقه ثم ابنه بالتبني ثم حرم الإسلام فيما بعد أمثال هذا التبني– وقال: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.»[2]

عندما بلغ جيش المسلمين مؤته استقبلهم هناك جيش قوامه مائتا ألف رجل، إذن، هناك فرق مذهل بين الجيشين.. ثلاثة آلاف شخص أمام مائتي ألف شخص، وعلى الرغم من كل هذا الفرق الهائل قرر المسلمون القتال وهم يقولون "إما أن ننتصر أو ننال الشهادة."

استشهد القادة الثلاثة الأول واحداً إثر آخر، وانتقلت الراية من يد إلى يد حتى وصلت إلى خالد بن الوليد الذي انكسر في يده في ذلك اليوم تسعة

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٩٨/٤، ٣١١؛ «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري ٢٣٧/٣–٢٥٠

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٥٦/٦–١٥٧؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٥/٤، ٢١؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٩١/٤

سيوف،[1] وبدأ خالد بن الوليد الذي انتقلت إليه القيادة بعد استشهاد عبد الله بن رواحة يقاتل من جهة ويناور بمهارة يبحث عن طريقة للانسحاب إلى المدينة دون إعطاء المزيد من الخسائر، وكان هذا الانسحاب نجاحاً كبيراً من ناحية التكتيك الحربي.. صحيح أن التراجع إلى الوراء لم يكن من شيمة الصحابة، وكان الصحابة متألمين من هذا ويحز ذلك في نفوسهم، إلا أن المقاييس القرآنية تذكر بأن هذا كان ضرورياً.

وينقل البخاري هذه الواقعة فيورد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب –وعيناه تذرفان– حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله فتح الله عليهم.»[2]

وفي رواية قال النبي ﷺ: «مثلوا لي في الجنة في خيمة من درة، كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابن رواحة، أعناقهما صدوداً، إنهما حين غشيهما الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل.»[3] إذن، فحتى الصحابة قد يكون عند بعضهم كراهية الموت، ولكن هذه الكراهية لم تصل عند أي منهم إلى حد محظور، ولا شك أن ما رآه الرسول ﷺ يعود إلى عالم البرزخ وعالم المثال.

أخافت هذه المعركة بني الأصفر مع أن عدد المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثة

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٤٤

(٢) **البخاري**، المغازي، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١١٣/٣

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٦٠/٦؛ «**المصنف**» لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ٢٦٦/٥

آلاف مقاتل، واستطاع خالد أن ينسحب بجيش المسلمين دون إعطاء المزيد من الخسائر، وحسب رواية ابن هشام فإن عدد الشهداء في هذه المعركة بلغ اثـــني عشر شهيداً.[1] وآكدت معركة مؤتة للناس في تلك النـــواحي أن المـــسلمين موجودون، وبدأ الروم يتحدثون عن هذا الدين الجديد.. عن الإسلام، وسواء أآمنوا أم لم يؤمنوا فقد بدأ الناس يتحدثون عن الرسول محمد ﷺ.

بعد هذا التهيؤ العام جاء وقت تحقيق الرؤيا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ۞ هُـــوَ الَّـــذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (الفتح: ٢٧-٢٨).

٣. نحو فتح مكة

كان الرسول ﷺ يرى الرؤيا الصادقة، ويروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح."[2]

هكذا كانت الرؤيا التي كان الرسول الله ﷺ يراها في منامه، وقـــد رأى في منامه أنه يدخل المسجد الحرام مثلما صورت الآية الكريمة ذلك وصدقته. ومع أن الرؤيا التي كان النبي ﷺ يراها في منامه كانت ممتزجة بالوحي وقريبة منه إلا

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٣٠؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٢٩٥

(٢) **البخاري**، بدء الوحي، ٣

أن كلمة "الرؤيا" قد تأتي بمعنى "الرؤية"، أي فكما كان الله تعالى يريه أحياناً الجنة وجهنم واللوح المحفوظ، ويريه بعض الحوادث المستقبلية حتى يوم القيامة.. على غرار هذه فقد أراه دخوله إلى المسجد الحرام آمناً مطمئناً وأداءه مراسيم الحج والعمرة، قد تكون هذه رؤيا في المنام وقد تكون رؤية عيانية، وسواء أكانت هذه أم تلك فالنتيجة لا تتغير، فالمهم هو أن الحوادث جرت مثلما رآها بالضبط، وكان المنظر الذي رآه يشير إلى فتح مكة، وكانت الحوادث تدفع المسلمين نحو الفتح.

كنا قد ذكرنا ما تمَّ من صلح في الحُديبية بين قريش وحلفائها من القبائل وبين المسلمين وحلفائهم من القبائل، ولكن عندما قامت قبيلة بني بكر الحليفة لقريش بالهجوم على قبيلة بني خُزاعة والفتك بهم فقد تم الإخلال بصلح الحُديبية، و لم تعد بنود هذا الصلح سارية، وقد أدرك أبو سفيان وخامة عاقبة هذا الهجوم، فسارع بالسفر إلى المدينة محاولاً التأكيد على أن الصلح لا يزال سارياً، ولكن لم يوفق في مسعاه هذا.[1]

لقد سبق السيف العذل، وبدأ النبي ﷺ يتهيأ للمعركة، وكعادته دائماً كان يكتم نيته وهدفه، وقد كتم نيته هذه حتى عن أقرب وزرائه ومستشاريه إلى درجة أن أبا بكر ﷺ عندما ذهب مرة ليزور ابنته عائشة رضي الله عنها رأى الرسول ﷺ وهو يتهيأ للسفر، فسأل ابنته عن وجهته فقالت: لا والله ما أدري.[2]

أجل، كان التهيؤ للفتح سرّياً إلى هذا الحد حتى عن أبي بكر ﷺ، أي حتى

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣١/٤ وما بعدها.

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٩/٤

عن أقرب الناس إليه والذي اختاره لكي يكون رفيقه في الهجرة. ومـــع ذلـــك كتم عنه هدفه من التهيؤ للسفر، وهذا بُعد آخر من أبعاد فطنته العسكرية، وقد أخذ السلطان محمد الفاتح هذا الدرس من الرسول ﷺ، لذا نراه يقول في أحد الأيام: "لو أن لحيتي عرفت سري لحلقتها." هاكم فاتحاً كبيراً من أتباع الرسول ﷺ ومن مدرسته في التكتم.

كان الرسول ﷺ عندما يقوم بعمل عسكري يوري بغيره ويتكـــتم علـــى هدفه الحقيقي ويحاول أن يقدم بعض القرائن التي تشير إلى هدف آخـــر غـــير هدفه الحقيقي، وأنا أعتقد أن القواد الحاليين يفعلون الشيء نفسه، فإن كـــانوا ينوون الهجوم على موضع ماء فإنهم يقومون بعمليات تمويه ويفتعلون ضـــجة كبيرة في موضع آخر، إذ يخفون نياتهم الحقيقة على الدوام فلا يدري أحد أين سيقومون بتوجيه ضرباتهم، أفي موضع أ؟ أم في موضع ب؟ أم في موضـــع ج؟ وهذه تكتيكات تطورت منذ أكثر من أربعة عشر قرنـــاً، ولكـــن المكتـــشف الحقيقي لهذا هو الرسول ﷺ، مع أنه لم ير مدرسة ولم يقرأ كتاباً، ولكنه تعلم ما تعلم من ربه فأصبح -وهو الأمي- أعلم العلماء إلى درجة أنك لا تملك إلا وأن تشهد بأن محمداً رسول الله.

أجل، كان يخفي هدفه عن الأعداء وفي الوقت نفسه يجمع الأخبار عن طريق شبكة الاستخبارات التي أسسها بحيث لم يكن يحدث شيء إلا ويـــصله خـــبره. وسواء أكان يتصرف هكذا بأمر من الوحي أم بسبب فطنته الكبيرة فالنتيجـــة لا تتغير وهي أنه كان يعرف ما يحدث في البادية كما يعرف راحة يده.

إليكم مثالاً: قام أحد الصحابة الذين شهدوا بدراً بإرسال رسالة إلى مكـــة

-باجتهاد خاطئ منه- بعد أن علم أنهم متوجهون نحوها- مع امرأة يخبرهم فيها بمسير رسول الله ﷺ إليها، وعلم الرسول ﷺ هذا من قبل الوحي فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العَوّام ﷺ للقبض على المرأة وأخذ الرسالة منها، وهذا ما تم وبسرعة.[1]

واستمر التكتم في هذا الأمر ولم يشعر أحد بقدوم هذا الجيش حتى أصبح على مشارف مكة. وعندما استدعى الرسول ﷺ إليه أبا سفيان عن طريق عمه العباس ﷺ، لم يكن قد بقي أمام أهل مكة أي خيار أو سبيل آخر، فلو حاولوا الهرب بأسرع فرس أو ناقة لما نجوا.. لقد أسقط في أيديهم.

ومع ذلك كان الرسول ﷺ يتصرف بحذر، وحذره هذا كان من أجل الفريقين إذ لم يكن يريد أن يتأذى أحد لا من جيشه ولا من أهل مكة، وبسبب حذره هذا استطاع فتح مكة، تلك المدينة العظيمة، ولم يسقط سوى ثلاثة شهداء من جيش المسلمين، بينما كان لا يزال هناك الكثير من أهل مكة من الذين ركبوا عقولهم وقرروا القتال وليكن مايكون.

أتى الرسول ﷺ مع جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، أجل، مع عشرة آلاف مقاتل مع أنه أتى قبل سنتين مع ١٦٠٠ نفر فقط من المسلمين، وأراد الرسول ﷺ إظهار القوة الحقيقية لجيشه هذا فأمر بأن يوقد كل مقاتل ناراً، وذلك في مكان مشرف على مكة ليراها أهل مكة. ولما كان أهل مكة يتصورون أن كل خيمة توقد ناراً. لذا، فعندما رأوا عشرة آلاف نار موقدة

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤١/٤

قدروا أن الجيش الذي حاصرهم لا بد وإنه يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل، وهذا أدى إلى شل حركتهم شللاً كلياً، وأدركوا أن لا سبيل أمامهم سوى الاستسلام، وهذا هو ما أوصى به أبو سفيان عندما رجع إلى مكة، لأنه عندما رأى هذه النيران التي ملأت البطحاء فقد كل أثر من آثار المقاومة.. كانت هذه الليلة هي اللية الأخيرة للجاهلية إذ لم يبق بين المسلمين وبين ساعة الفتح سوى ليلة واحدة.[1]

كانت استراتيجية الرسول ﷺ -ذات البدائل المختلفة- مستمرة، وقسم الجيش الداخل إلي مكة إلى ستة أقسام حيث دخلوا إلى مكة من ستة أذرع، و لم يجد أي جيش مقاومة سوى الجيش الذي كان على رأسه خالد بن الوليد ﷺ إذ اضطر إلى تشتيت القوة التي جمعها عكرمة بن أبي جهل، أما الجيوش الأخرى فقد دخلت مكة دون قتال.[2]

كان أبو سفيان هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يخلق مشاكل في مكة، ولكن الرسول ﷺ استطاع أن يلين قلبه بجملة واحدة فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.» أجل، كان إعطاء هذا القدر والمكانة إلى أبي سفيان كافياً لربط يديه ومنعه عن القيام بأي عمل طائش، بل أصبح أبو سفيان من أنشط من حث على الاستسلام، ولا شك أنه ما كان باستطاعة جميع أهل مكة اللجوء إلى بيت أبي سفيان، وكان بيت الله "الكعبة" أولى من بيت أبي سفيان بالرعاية، لذا قال رسول الله ﷺ: «ومن دخل الكعبة فهو آمن»، ثم كان هناك

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٤١-٤٥

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٤٩-٥٠

قرار مفاجئ، وهو منع الخروج من البيت لأول مرة في التاريخ، وكان هذا ضرورياً من ناحية تحقيق الأمن ومن ناحية تسهيل حركة الجيش، لذا قال الرسول ﷺ: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.»[1] وهكذا تم القضاء على أي احتمال للمقاومة من قبل أهل مكة.

ولو أننا صرفنا أنظارنا عن الغزوات الأخرى للرسول ﷺ وركزناها على فتح مكة فقط والاستراتيجية السياسية والعسكرية التي طبقها، لكان هذا كافياً لمعرفة درجة عبقريته العسكرية. أجل، إن فتح مكة وحده يكفي لأن يدفع كل منصف إلى أن يقول: "محمد رسول الله."

لقد كان واثقاً من كل خطوة خطاها في كل مرحلة من مراحل تحقيق خطته حتى لكأنه فَتح مكة مرات عديدة، فقد استطاع تطبيق خطته حتى أدق تفاصيلها تطبيقاً دقيقاً، كما عمل كل ما كان يجب عليه عمله.. فالعفو العام الذي أعلنه بُعيد الفتح، والشهامة وسعة الصدر التي أبداها فتحت قلوب أهل مكة فأقبلوا على إعلان إسلامهم، فما أعذب وما أرق هذه المكرمة التي ساقت أهل مكة سوقاً إلى الإسلام! والآن أتى دور قلب هذه القوة الكامنة إلى حركة وإلى عمل.

يا سبحان الله!.. ما أعظم هذا الانقلاب! هؤلاء الناس الذين كانوا بالأمس أعدى أعدائه، أصبحوا اليوم مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل محاربة أعدائه.. فمن ألقى عليه رسول الله ﷺ نظرة انقلب من فحم إلى ماس.. ولكن ما الداعي إلى أي تشبيهات أخرى، لقد شبه هو ﷺ أصحابه بالنجوم.[2] لقد

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣١/٤-٣٣٢؛ «**السيرة النبوية**»لابن هشام ٤٧/٤

(٢) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١٤٧/١

استطاع رسول الله ﷺ في يوم واحد أن يرفع الأرواح المتلطخة لهؤلاء القوم الذين كانوا يتدحرجون في الأوحال إلى السماء ليكونوا نجوماً تشع فيها وليصبحوا قدوة حتى يوم القيامة.

٤. هفوة حُنين

حتى فتح مكة كانت هناك قبائل تتعقب الحوادث لكي تنضم إلى الجهة الغالبة، فلما تم فتح مكة بدأت هذه القبائل بالدخول إلى الإسلام قبيلة قبيلة، ولكن جريان الأمور على هذا النحو لم يعجب قبيلة ثقيف وقبيلة هوازن، ولكي لا تسمحا بالمزيد من هذه التطورات السلبية بالنسبة إليهما فقد أسرعتا إلى تشكيل جيش اشترك فيه كثير من النهاب والسلاب أيضا حتى بلغ مجموع أفراده ٢٠-٣٠ ألفاً.[1]

أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي رضي الله عنه ليتسقط ويجمع له الأخبار من وسط هذه القبائل، وقام هذا الصحابي بعمله وبلّغ الرسول ﷺ كل ما جمعه من أخبار ومعلومات وقال: إن قبيلتي ثقيف وهوازن قد جمعتا جيشاً كبيراً في حُنين.

كانت كلتا القبيلتين معروفتين بالشجاعة وبالمهارة في رمي السهام، لذا كان يجب مقابلتهما بجيش شاب يشكل فيه المسلمون الجدد غالبيته، وهكذا كان، فقد أصدر الرسول ﷺ أوامره بالمسير نحو حُنين دون أي تأخر، لأن الأوضاع كان من الممكن أن تنقلب ضد المسلمين، ذلك لأن جيش العدو إن تيسر له الوقت للتوجه

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٦٨-٣٧٢

نحو مكة لكان ذلك فرصة أمام بعض من كانوا يتحينون الفرص في مكة لعمـــل شيء ما ضد المسلمين، وفي الوقت نفسه لو قام المسلمون الجدد في مكة الـــذين أحسوا أن كرامتهم قد أهينت بالاشتراك في الحرب ضد الأعداء لكان ذلك باعثاً على تثبيت إيمانهم بالإسلام وإحساسهم بوحدة المصير في المستقبل.

تم الذهاب إلى حُنين باثني عشر ألف من المقاتلين، كان من بينهم ألفان ممن لم يكونوا مسلمين عن صدق، أما الباقون فكـــان معظمهـــم مـــن الـــشباب وتنقصهم التجربة والخبرة في القتال، وكان على رأسهم خالد بن الوليـــد ﷺ. كان العدو قد أخذ موضعه على شكل حدوة الحصان، وبدأت طلائع الجـــيش الإسلامي بشن الهجوم على القلب من جيش العدو ولكن دون أن ينتبهوا للأمر أو عن قصد.

ثم اضطرت هذه الطلائع إلى التراجع على أثر إمطارها بالنبال والـــسهام، لأن أكثر الجنود لم تكن لديهم دروع، وكانت السهام شـــديدة علـــيهم وتـــصيب أهدافها، فإن كان الهجوم على وسط حدوة الحصان تم عن علم فـــإن التراجـــع والتقهقر كان خدعة حربية، ذلك لأن رماة السهام ما إن رأوا تراجع المـــسلمين وهربهم حتى انطلقوا وراءهم وهم يطلقون صيحات الفرح وتركوا مواضعهم و لم يشعروا أنهم دخلوا داخل كماشة مما اضطرهم إلى التراجع، و لم تمـــض ســـوى ساعات حتى قتل منهم من قتل وفَرَّ الباقون إلى الطائف واحتموا بقلاعها.[1]

ظهرت بوادر هزيمة ظاهرية في بداية معركة حُنين –مثلما حدث ذلـــك في وسط معركة أُحد– ولكن رسول الله ﷺ استطاع بشجاعته الفطرية التي كانت

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٧٣/٤ وما بعدها.

تلازمه حتى في أحرج المواقف وأصعبها، وبفطنته الكبيرة أن يغير وجهة الحرب ويحولها بفضل الله تعالى من هزيمة مطلقة إلى نصر باهر.

عندما أحاط الذهول والذعر بجيش المسلمين وتقهقروا اندفع رسول الله ﷺ إلى الأمام.. كان عمه العباس رضي الله عنه -وفي رواية أبو سفيان بن الحارث- قد أمسك بلجام بغلة الرسول ﷺ ليمنعه عن الاندفاع نحو العدو، بينما كان الرسول ﷺ يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب»

ثم قال لعمه العباس: «أي عباس! ناد أصحاب السَّمُرَة»، فأجابوه: "لبيك.. لبيك!" وجعلوا يسرعون إليه وسيوفهم مشهرة في أيديهم، وهكذا انتهت فترة الذهول والتراجع القصيرة وثابوا إلى الرسول ﷺ وانتهت المعركة بالنصر المبين.(١)

لا أملك نفسي هنا من الإشارة إلى نقطة، وهي أن رسول الله ﷺ اشترك في ثمانية عشر غزوة وانتصر في جميعها، ولكني أعتقد أن معركتي أُحد وحُنين أفضل معاركه من ناحية إظهار عبقريته العسكرية، ذلك لأن الأمور جرت في المعارك الأخرى مثلما خطط لها تماماً ووصل إلى النصر فيها بسهولة، أما في هاتين المعركتين فقد ظهرت أمور وطرأت مشاكل غير محسوبة حرفت خططه وغيرتها وأعطت فرصاً كبيرة للعدو، ولكنه استطاع مع هذا، الوصول إلى النصر و لم يكن له أي دخل في تلك المستجدات، لذا كان قيامه بإنقاذ جيشه

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٥٢؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٦-٧٧؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٧٣/٤

من الهزيمة والوصول إلى النصر في هاتين المعركتين أفضل وأوضح برهان على العبقرية العسكرية لذلك القائد العظيم.

٥. تبوك

تعد معركة تبوك من المعارك السريعة التي حققها الرسول ﷺ، فقد انتشرت شائعة مفادها أن الإمبراطورية البيزنطية هيأت جيشاً كبيراً وإن هذا الجيش بدأ بالتوجه نحو المدينة، وبينما أقلقت هذه الشائعات المسلمين فإنها أصبحت مصدر أمل وسرور للقبائل المعادية للمسلمين، الجميع كانوا يتوقعون من الغسانيين شراً بالمسلمين.

ومع أن الرسول ﷺ كان يستعين بالكتمان في جميع غزواته، إلا أنه أعلن هذه المرة عن هذه الغزوة وأرسل رجالاً إلى القبائل القريبة يطلب منها مساعدته بالرجال وبالسلاح. كانت المدينة وما حواليها تعيش آنذاك ظروفاً صعبة، فالجو كان حاراً جداً والجفاف سائداً، كما كان وقت قطاف الثمار، ولكن في هذا السفر وفي هذه الغزوة كم من فقير ذهب إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يوفر له راحلة ليشترك في هذه الغزوة، وعندما لا يستطيع الرسول ﷺ ذلك رجع وهو يبكي.. والقرآن الكريم ذكر هذا المشهد المؤثر وخلّده في قوله: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢).

في هذه الأثناء لم يكن المنافقون واقفين مكتوفي الأيدي، بل بدأوا بنشاط محموم لتثبيط عزيمة المسلمين وعرقلة سفرهم هذا، واستعانوا بكل حيلة في هذا المجال. أخيراً توجه الرسول ﷺ بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل نحو تبوك، وبقي في تبوك

عشرين يوماً، ولكن البيزنطيين لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة لمواجهة هذا الجيش، لذا لم تقع حرب في تبوك، ولكن قدوم المسلمين حتى موضع تبوك أحدث تـــأثيراً كبيراً على كل من سمع بهذا النبأ، وكان تهديداً وتحدياً كبيراً للعدو أثر على معنوياته تأثير أي هزيمة كبيرة في ساحة القتال، وقد قبلت قبائل مسيحية عديدة أداء الجزية للرسول ﷺ وأعلنت انقيادها له، كما أعلنت بعضها إسلامها.[1] لذا، يمكن عـــد حملة تبوك من ضمن الانتصارات التي حققها الرسول ﷺ.[2]

لقد حاولنا بتقديم بعض الحوادث إظهار الجانب العسكري للرســـول ﷺ، والآن سنقوم بذكر الخصائص العامة التي يجب توفرها في أي قائد عـــسكري، لكي يتسنى لنا معرفة أفضل بالعبقرية العسكرية له ﷺ وبفطنته الكبيرة في هـــذا المجال.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٥٢

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣/٥ وما بعدها.

الفصل الثالث:

المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

بجانب المعلومات والقابليات العسكرية التي يجب توفرها لـــدي أي قائـــد عسكري يجب توفر كل صفات الزعامة فيه، لأن القائد العسكري زعـــيم في الوقت نفسه وسنقوم بتلخيص هذه الصفات:

١. على كل زعيم أن يملك قابلية إعطاء القرارات الصحيحة. يعد إعطـــاء القرار بمثابة الأسس للأعمال التي يجب إنجازها، ولكن كما يمكن إعطاء قـــرار غير صائب كذلك من المحتمل أن يكون القرار خاطئا مـــن ناحيـــة التوقيـــت كذلك، فالقرارات المتأخرة أو المتقدمة عن أوقاتها الصحيحة تعـــد قـــرارات خاطئة، لذا فإن القرار الصائب الذي يتخذه أي زعيم يتميز عن أي قرار آخر اعتيادي بأنه قرار صائب متخذ في وقته المناسب تماماً.

هناك أوقات مهمة يجب فيها اتخاذ قرار سريع، والزعيم يتميز عن الآخرين في مثل هذه الأوقات بقابليته على اتخاذ القرار السريع الذكي والصائب، هـــذا مع أن القرارات المتخذة على عجل تكون في الغالب قرارات خاطئة لأن العجلة تكون عادة ضد الصواب ويصعب أن يوجدا معاً، والزعيم هو رجل مثل هذه الأوقات الصعبة حيث يستطيع الجمع بين هذين الضدين.

٢. على كل زعيم أن يملك شجاعة فطرية.. من لم يكن شجاعاً لا يمكن أن يكون زعيماً، فعلى الزعيم أن يكون شجاعاً رابط الجأش قوي القلب، فقد يأتي يوم يبقى فيه وحيداً وشجاعته الفطرية تنقذه آنذاك من التذلل، في مثـــل هذه الأوقات التي يضطر فيها الزعيم والقائد إلى تحمل تبعات دعوته وحده عليه أن يتصرف وكأن الآلاف خلفه، وذلك لكي يستطيع الوصول إلى هدفه.

أجل، على القائد والزعيم ألا يخاف من الموت أبداً. فالذي يخاف من كل شيء ويخشى من كل خطوة ومن كل أمر لا يمكن أن يكون قائداً ينظم ويدير جماعته.

٣. القائد رجل الإرادة التي لا تلين، فليس من الممكن له الرجوع عن قراره ولا تبديل إيمانه وعقيدته ولا إعطاء أي تنازل عنها، فالأمل صديقه الـــذي لا يفارقه، أما اليأس فعدوه الكبير الذي لا يقربه حتى في الأحـــلام، فالعراقيـــل الموجودة أمامه مهما كانت كبيرة لا تثنيه عن عزمه ولا تضعف من إرادتـــه، فهو يملك قوة معنوية وروحية يغلب بها اليأس، وإلا فكيف يكون باســـتطاعته جذب الجماهير خلفه؟ أجل، إن القائد شخص ذو إرادة فولاذية لا تلين.

٤. القائد شخص يدرك مسؤولياته إدراكاً جيداً، وشعور المسؤولية هـــذا جزء لا يتجزأ من كيانه، فلو تفرق عنه جميع من حوله واحداً إثر واحد فهـــو يبقى مستعداً لتحمل التبعات الثقيلة لدعوته حتى النهاية وإن أصـــبح وحيـــداً. أجل، هذا هو مقدار شعوره بالمسؤولية، وليس هناك أمر أو عـــائق يـــستطيع إضعاف هذا الشعور الذي يتحول عنده إلى قناعة فكرية ثابتة.

٥. على الزعيم أن يكون بعيد النظر يتجاوز زمنـــه، ويكتـــشف مـــسار

الحوادث المستقبلية بحدسه وبفكره الثاقب ويراها مثلما رأى الأحداث الماضـــية ويعطي أحكامه وقراراته على هذا الأساس. ولكن إن كانت الأيام تثبت على الدوام عكس ما أمله وما توقعه وتنقض حدسه فليس في إمكانه إقنـــاع مـــن برأسه مسكة من عقل.

على الزعيم أن يرى المستقبل لكي تكون قراراته نهائيـــة، وإلا اضـــطر إلى تبديل قراراته على الدوام حسب تقلب الأيام، وهذا سيولد الخلاف الفكـــري والشقاق بين جماعته، وهذا يؤدي إلى انهدام الجماعة. فالقرارات المتغيرة علـــى الدوام ستؤدي إلى تفتيت الجماعة إلى أفراد كل منهم يحمل فكراً خاصاً بـــه. إذن، فعلى القائد أن يكون ذا بصيرة نافذة وفراسة حادة.

٦. على القائد أن يكون إنساناً مستقراً من الناحية النفسية لا يتأثر ولا يغير وضعه تحت تأثير أي حادثة، فلا يغره أروع النجاحـــات ولا يغـــيره أكـــبر الانتصارات، وعندما يواجهه الفشل يقوم بمحاسبة نفسه.

القائد هو الشخص الذي بَعُد عن وضاعة النفس واســـتمر في طـــرز حياتـــه البسطية المتقشفة، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، بل إن القائد الجيد هو الذي ينهي حياته بمستوى أعلى من البداية التي بدأها، وهذا لا يتم إلا إذا كان القائـــد يملك نفساً متواضعة تمام التواضع لكي لا ينسى أيامه الأولى ولا أصدقاءَه السابقين.

٧. القائد شخص يعرف التقييم الجيد للأفراد، ويعرف أكثر من غيره نوعية الأفراد الموجودين تحت قيادته، ويعرف أين يستعمل ومن يستعمل منـــهم وفي تحقيق أي هدف. والشخص الذي لا يعرف توزيع الأعمال حسب القابليات، ولا يسجل نجاحاً في هذا الأمر لا يستطيع أن يكون ليس فقط قائداً بل حـــتى

إدارياً جيداً.

على القائد أن يودع كل عمل إلى أليق الأشخاص لذلك العمل وأكثرهم قابلية في إنجاز ذلك العمل. فالقائد أفضل من يقوم بهذا التقييم ويقوم بتوظيف القابليات والاستفادة منها على الدوام. وهو عادة لا يضطر إلى الرجوع عن قراراته السابقة في هذا المجال لأنه يملك بوصلة حساسة في تقييم القابليات ووزن الرجال، طبعاً عدا استثناءات قليلة لا يمكن لأي إنسان التخلص منها.

٨. القائد هوالشخص الذي يحب رعيته بحيث أن كل فرد منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو الشخص الذي تقابله رعيته أيضا بالحب.. ثقته بالرعية وثقة رعيته به تامة.

٩. لا يوجد في أي مرحلة من مراحل حياته شيء يمكن إشهاره في وجهه كتهمة، فماضيه معروف كحاضره، وماضيه نقي كحاضره، ولو قام أحد بتدقيق ماضيه –سواء بنية سيئة أو حسنة– لما وجد فيه ما يخجل منه، ولو أصبحت الدنيا بأجمعها خصما له لما استطاعت إلقاء أي ظل من الشك على عفته وسمعته.. طبعاً إن تم الالتزام بالصدق و لم يسلكوا سبل الكذب والافتراء.

١٠. القائد شخص له جوانب عديدة وميزات كثيرة، واستطاع التميز في مجتمعه في كل جانب من هذه الجوانب، ولا يمكن لأحد أن يجد أي عيب في تصرفاته وسلوكه، وكلما دققت جوانبه المختلفة تبين هذا الأمر أكثر فأكثر.

لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من هؤلاء القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل هذه الصفات التي عددناها، أما القادة الذين جمعوا

بعض هذه الصفات فقلة أيضاً.

"الإسكندر الكبير"، "هَنيبَعل (Hannibal)"، "نـــابوليون (Napoléon)"، "هتلر (Hitler)"، ومن تاريخنا: "محمد الفـــاتح"، "الـــسلطان ســـليم الأول"، "السلطان بايزيد" والملقب بالصاعقة، "جلال الدين خرزم شاه"، "صلاح الدين الأيوبي"، "طارق بن زياد"، "الشيخ شامل" الذي حارب الروس مدة أربعـــين عاماً... لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظاماً، غير أننا إن قمنا بتقيـــيمهم مـــن زاوية الصفات التي سردناها لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبداً بقائـــد القـــادة محمد ﷺ.

أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله استطاع أن يجمع فيه جميـــع صفات القيادة الناجحة دون أي نقص وفي أعلى الذرى وهو محمد ﷺ.. ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الإجراءات التي اتخذها طوال حياته.

أ- نظرة سريعة على حياته

كانت جميع قراراته سريعة وصائبة جداً، فلم ينتج الفشل والخذلان عـــن أي قرار اتخذه، وقد سبق وأن أعطينا أمثلة مفصلة حول هذا الأمر ولاسيما القرارات الصائبة التي اتخذها في معركتي أُحد وحُنين والتي أنقذت جيشه من هزائم محققـــة وأوصلته إلى انتصارات مبينة.

كان شخصاً شجاعاً بفطرته، سلك طريقاً طويلاً وصعباً تحدى به العـــالم أجمع، واستمر في طريقه هذا دون خوف لا من أي فرد ولا من أي جماعة، بل

كان عندما تبدو بوادر الهزيمة في جيشه يسوق فرسه ويهجم بنفسه على الأعداء دون أي خوف ولا وجل حتى أن فارساً بشجاعة علي بن أبي طالب ﷺ كان يقول: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا."[١]

يورد البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نَجْد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله تحت سَمُرَةٍ وعلق بها سيفه ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلْتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله» (ثلاثاً)، ولم يعاقبه وجلس.[٢] هذه هي شجاعة رسول الله ﷺ، وهذا هو مبلغ ثقته بالله واعتماده عليه.

وفزع أهل المدينة يوماً عندما سمعوا صوتاً عظيماً وخرجوا إلى الدروب لاستطلاع الخبر، دعونا نقرأ الحادثة في البخاري عن أنس ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول «لم تُراعوا لم تُراعوا» وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف.[٣]

---

(١) «**المسند**» للأمام أحمد ٨٦/١

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٧٤، المغازي، ٣١؛ **مسلم**، كتاب صلاة المسافرين، ٥٧

(٣) **البخاري**، الأدب، ٣٩؛ **ابن ماجه**، الجهاد، ٩

كان الرسول ﷺ أول من سمع الصوت فامتطى فرس أبي طلحة وتوجــه إلى ناحية مصدر الصوت حتى اطمأن إلى عدم وجــود أي خطــر ورجــع. إذن، فالإسراع وحده نحو مصدر صوت أفزع جميع أهل المدينة يبين مدى الــشجاعة الفطرية التي كانت موجودة لديه.

وعندما خشي أبو بكر ﷺ وخاف على حياة الرسول ﷺ وهو في الغــار معه بعد أن اقترب منهما المشركون قال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهمــا؟!» فهدّأ بذلك روع أبي بكر الصديق ﷺ.[1] ثم ألا يعد خروجه من داره والأعداء الذين أعماهم الحقد والغضب يحيطون بها شجاعة كبيرة؟ كــان يملــك إرادة صلبة لا تهتز ولا يمكن لويها لأنها كانت مرتبطة بمشيئة الله تعالى.

ب- العظمة التي لا يمكن بلوغها

توفي والده قبل أن يولد، أي أصبح يتيماً وهو في بطن أمه، لذا لم يتعــود الاعتماد على الأب وانتظار العون والمساعدة منه وما قد يستتبع هذا الاعتماد من ارتخاء لدى الإنسان، فدعوته كانت موجهة إلى تقوية إرادة الإنسان.

وتوفيت أمه وعمره ست سنوات، بينما تعد الأم أكبر سند للمرء، وليس هناك من يستطيع أخذ مكان الأم في القلب، إذن، فقد سُحب منه هذا السند أيــضاً.. كانت الحوادث تهيئه وتربيه، وكانت إرادة فخر الكائنات تقوى بمرور الأيام.

وفي سن الثامنة فقد جده، هذا الجد الذي كان سنداً لمكة ولأهل مكــة.. ولكنه أفل هو الآخر.

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢؛ «**المسند**» للأمام أحمد ٢/١

كان الله تعالى يريد بهذه الحوادث أن يوجهه إلى منبع الثقة ومصدر الأمان.. إلى ذاته تعالى، وأن يسحب من حوله ومن بين يديه كل شيء يمكن أن يلقي ظلاً على هذا الأمر.. أجل، سيعاونه هو، ويسانده هو وسيربيه هو تعالى.. صحيح أنه من المحتمل أن هزة كانت تصيب رسول الله ﷺ كلما فقد سنداً، وذلك حسب طبيعته الإنسانية، غير أنه كان يجب أن يتهيأ تماماً لحمل عبء الوظيفة الكبرى التي بانتظاره وأن تشحذ إرادته أكثر فأكثر، وذلك لكي لا يفقد من عزيمته شيئاً ولا يتردد أبداً وإن سحبت الدنيا جميعها يدها منه وبقي معلقاً في الفراغ وحده. ولوحدث له هذا -وهو لم يحدث في الحقيقة- لما تغير شيء بالنسبة إليه ولاستمر في طريقه.. ولو لم يكن هذا أمره فكيف كان يستطيع جمع أصحابه بعد كل ما أصابه وأصابهم، ويأمرهم بتعقب جيش العدو؟ كان صاحب إرادة قوية إلى درجة أنه رغم كل الجروح التي أصابته وأصابت أتباعه، ورغم التعب والإرهاق فقد كان في مقدمة جيشه وهو يتعقب جيش العدو.

لا توجد في حياته لحظة ذعر واحدة، ففي اللحظات التي تفرق عنه أصحابه الذين كان كل واحد منهم أسداً هصوراً ذات اليمين وذات الشمال ثبت هو في مكانه فلم يتأخر خطوة واحدة.. أجل، لقد كانت إرادته إرادة فولاذية لا تلين.

لم يبق هناك أذى لم يصبه في مكة، ولكنه لم يهتز.. توفيت زوجته ثم عمه وكانا من أكبر مسانديه، ولكنه لم يصبه أي يأس ولم يظهر عليه أي تردد أو قلق.

عندما ذهب إلى الطائف رموه بالحجارة فأدموا وجهه وألجأوه إلى حائط، وظهر له ملك وقال له إنه مستعد لأن يحمل جبلاً ويطبقه على أهل الطائف إن

أراد ذلك، ومع أن الدم كان يسيل على جسده الطاهر إلا أنه رفض هذا..[1] فما أعجب هذه الإرادة التي لا تتزحزح قيد شعرة عن قرارها.. إذن، يستطيع الإنسان أن يتبع مثل هذا القائد حتى الموت، وأن يفديه بكل شيء، لأنه يعلـــم جيدا أنه مع مثل هذا القائد لن يقف في منتصف الطريق.. فكيف يمكن السير وراء شخص ضعيف الإرادة يغير رأيه بسرعة ويترك أصدقاءه في وقت الـــضيق والشدة ويرجع عن قرارات ومبادئ سبق وأن تم التضحية في سبيلها بـــآلاف الأشخاص، بينما كان المنتظر منه الاشتراك بالتضحية نفسها؟ كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون قائداً وزعيماً؟ ثم أليس أمثال هؤلاء من مدعي الزعامة والقيادة هم السبب في خيبة الرجاء التي يحسها إنساننا اليوم؟

كان ﷺ إنسان مسؤولية وبطلاً من أبطال الإرادة الصلبة، فالقرآن الـــذي أنـــزل عليه لو أنـــزل على جبل لتصدع.. لقد كان صاحب إرادة مدهـــشة. كُلّف بمهمة التبليغ.. كان عليه أن يُعرِّفَ بالله تعالى كُلَّ إنسان فرداً فـــرداً.. كانت مهمة صعبة مثل مهمة تفريغ مياه المحيط بقشرة بيضة، ولكن رسول الله ﷺ أخذ هذه المهمة على عاتقه دون تردد.. فتح القلوب وأدرك قابليات كـــل فرد من الأفراد.

تبليغ دعوة الإسلام كان هدف وجوده، فلم يكن قلقاً لا حول الـــدنيا ولا حول الآخرة، فلم يُنسِه أي شيء هذا الهدف وهذه المسؤولية، لا رؤيته الجنات ولا وصوله إلى قاب قوسين.. فمن ذلك المكان الذي رصفت النجوم تحـــت أقدامه كالحصى رجع إلى هذه الدنيا المملوءة بالآلام وبالمشقات وأصبح معنـــا

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٦٨/٣

وبيننا، لأنه كان يشعر بمسؤوليته وبوظيفته بكـــل ذرة مـــن ذرات وجـــوده وكيانه.. بلغ شعور المسؤولية عنده درجة قال معها ذات يوم: «واللهِ لَـــوَددتُ أني كنت شجرة تُعضَد[1]»[2] كان هذا هو إدراكه لمسؤولية كونه إنساناً يحمل عبء مهمة ثقيلة ويئن تحت ثقل هذه المسؤولية.. وحاله يوم المحـــشر امتـــداد لمسؤوليته هذه، لذا سيقع يوم القيامة ساجدا لله تعالى وهو يقول: «أمـــتي!.. أمتي!..»[3] والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد غيره يستطيع حمـــل مثـــل هـــذه المسؤولية، لأنها كانت مسؤولية الإنسانية كلها، أي تمتد من الإنـــسان الأول حتى الإنسان الأخير.

كان صاحب رؤية وفراسة تتجاوزان أبعاد الزمان والمكان. أهذا فحـــسب؟.. كانت نظراته تصل إلى عالم الغيب وتبصره، إذ ألم يكن هو الذي شرح لنا وهـــو في الدنيا عالم الجنة وجهنم والصراط والمحشر بكل تفاصيله؟ كان يرى ويشاهد هذا العالم ثم يصفه لنا[4] وكما أكدنا من قبل مراراً فإن الحوادث صدقت كل أقوالـــه التي قالها حول المستقبل و لم تكذبه، فكلما حان الوقت الملائم ظهرت الحادثة التي تنبأ بها، وهناك حوادث تنتظر الظهور.[5] ولكي تدرك مدى بُعد نظره انظـــر إلى صلح الحُديبية الذي سبق وأن فصلنا الكلام حوله.

---

(١) **تُعضد**: أي تُقطّع.

(٢) **ابن ماجه**، الزهد، ١٩؛ **الترمذي**، الزهد، ٩

(٣) **البخاري**، التوحيد، ٣٦؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

(٤) **مسلم**، الفتن، ٢٢-٢٥؛ «**المسند**» للأمام أحمد ٤/١

(٥) انظر إلى مباحث الفتن والملاحم في كتب الحديث.

ج- الإنسان الذي لم يتغير

أنهى حياته مثلما بدأها.. أي سار فخر الكائنات على المنوال نفسه وضـــمن المقاييس نفسها والمبادئ نفسها فلم يتغير و لم يتبدل.. مثلما تصرف في مكـــة – وليس معه سوى امرأة وصبي وعبد وحر– تصرف في حجة الوداع وهو يخاطـــب أكثر من مائة ألف، بل إن تواضعه زاد وهو في أوج النصر والفتح المبين.

هو القائد الوحيد الذي لم يتغير و لم يتبدل طوال حياته.. تأملوا كيـــف لم يغير سلوكه وتصرفه أمام الذين كانوا السبب في الأذى والشدائد التي تعـــرض لها طوال حياته. وعندما توسعت حلقات أصدقائه وتعددت بتقـــدم الـــدعوة والتحاق أناس جدد ذوي قابليات كبيرة، لم ينس أصدقاءَه السابقين أبداً، بقي كما كان سابقاً.

د- التواضع الرائع

كان جالساً في أحد الأيام يأكل مع أصدقائه، فمرت به امرأة بذيئة اللسان، فلما رأته قالت:"انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد." فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبدٍ أعبد مني؟» قالت: "ويأكل ولا يطعمـــني." قـــال: «فكلي.» قالت: "ناولني بيدك!" فناولها فقالت: "أطعمني مما في فيك" فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت.(١)

وعن جرير أن رجـــلاً أتى النبي ﷺ من بين يديه فاســـتقبلته رعـــدة أي ارتجف من مهابة النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢١/٩

أنـــا ابن امرأة من قريش تأكل القديد.»[1]

وعن ابن عباس أنه كان يحدث أن الله أرسل إلى النبي ﷺ ملكا من الملائكة مع الملك جبريل عليه السلام، فقال الملك: "يا محمد، إن الله يخيِّرك بين أن تكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً"، فالتفتَ رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأومــأ إليه أن "تواضع" فقال رسول الله ﷺ: «بل نبياً عبداً.»[2]

في هذه الأثناء كانت الغنائم والهدايا تأتيه من أرجاء الدنيا، ولكنه كان يوزع جميع هذه الغنائم والهدايا على أصحابه ولا يبقي لنفسه شيئاً منــها، و لم يــتغير سلوكه هذا طوال حياته، وعندما دخل مكة منتصراً وفاتحاً دخل وذقنــه يكــاد يلامس ظهر راحلته تواضعاً.[3]

عندما أقبل عليه سعد بن معاذ رضي الله عنه قال لجلسائه: «قوموا لسيدكم.»[4] ولكنه كان ينهى أصحابه عن القيام له ويقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم.»[5]

صلى في ليلة المعراج إماماً لجميع الأنبياء،[6] غير أن هذا الفضل المهدى إليه لم يغيره وقال: «لا تخيّروني على موسى.»[7] وقال مرة: «لا أقــول إن أحــداً

---

(١) **ابن ماجه**، الاطعمة، ٣٠؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٠/٩

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٩/٩-٢٠

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤٧/٤-٤٨

(٤) **البخاري**، الاستئذان، ٢٦؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٣٨/٢

(٥) **أبو داود**، الأدب، ١٥٢؛ «**المسند**» للأمام أحمد ٢٥٣/٥

(٦) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٣٦/٣؛ «**جامع البيان**» للطبري ٣/١٥

(٧) **مسلم**، الفضائل، ١٥٩-١٦٠

أفضل من يونس بن متّى عليه السلام.»[1]

ومع أن أستار الغيب رفعت مرات عديدة أمام عينيه إلا أنه عندما دخل على إحدى نسائه وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبيّ يعلم ما في غد، قال رسول الله ﷺ لها: «لا تقولي هكذا، وقولي الذي كنتِ تقولين»،[2] وفي رواية أخرى: «أمّا هذا، فلا تقولوه، ما يعلم ما في غد إلا الله.»[3]

أجل، هناك إنسان واحد وقائد واحد لم يغير سلوكه وتصرفه المتناغم طوال حياته، وهو بلا شك محمد رسول الله ﷺ.

هـ- معرفته بالقابليات

لم يكن له نظير ولا مثيل في اكتشاف قابليات أتباعه، فعندما تقررت الهجرة إلى الحبشة اختار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ليكون أمير المهاجرين، وقد أثبت جعفر رضي الله عنه في حواره مع النجاشي أن اختياره كان اختياراً صائباً.[4]

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أول من أرسله مرشداً إلى المدينة، وكان ما قام به مصعب رضي الله عنه في المدينة من أعمال، وما قدم من خدمات للدعوة الإسلامية أفضل وأصدق شاهد على حسن اختياره. لقد كانت المدينة في حاجة إلى رجل

---

(١) **مسلم**، الفضائل، ١٦٦-١٦٧

(٢) **البخاري**، مغازي، ١٢، النكاح، ٤٨

(٣) **الترمذي**، النكاح، ٦؛ **ابن ماجه**، النكاح، ٢١

(٤) «**المسند**» للأمام أحمد ٢٠١/١-٢٠٢

رقيق ودمث الخلق مثل مصعب، لذا اختاره الرسول لتلك المهمة.[1]

وفي ليلة الهجرة كان لا بد من وجود أحدهم في فراشه لايهاب المـــشركين إذ كان من المحتمل ومن الممكن أن تقع عليه الضربات الموجهة إلى الرسول ﷺ، لذا كان لا بد من اختيار بطل مثل علي بن أبي طالب ﷺ للقيام بهذه المهمة.[2]

ثم من كان يجب أن يرافقه في هجرته ويصاحبه في سفره ويكون معـــه في الغار؟ أي شخص كان من المفروض أن يراه أهل المدينة معه؟ لقـــد قـــرر أن يكون هذا الشخص أبا بكر ﷺ الذي حافظ على موقع الرجل الثـــاني علـــى الدوام، كان الرسول ﷺ قد عينه في هذا المقام والموقع منذ بداية الأمر، واستمر أبوبكر في هذا الموقع حتى النهاية، ذلك لأن اختياره كان موفقاً منذ البداية.

هذا، مع العلم أننا نجد آثار بصماته في اختيار جميع الخلفاء الراشدين مـــن بعده.. أي كان من المفروض أن يكون أبو بكر ﷺ هو الأول وعمر ﷺ هـــو الثاني وعثمان ﷺ هو الثالث وعلي كرم الله وجهه هو الرابع، ذلك لأن حدود آجال هؤلاء التي عينتها يد القدركانت تقتضي هذا التسلسل، فالتصرف الإلهي ظاهر في هذا الأمر.

كان موفقاً في كل اختيار له بدءاً من تسليمه السيف إلى أبي دُجانة ﷺ[3] وانتهاءً بمهمة زرع الشقاق بين قريش وبين اليهود التي أعطاها إلى نُعـــيم بـــن

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٦/٢

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٢٦/٢-١٢٧

(٣) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨

مسعود رضي الله عنه[1] كان يتصرف دائماً بمبدأ إعطاء كل مهمة إلى أهلها.

كان حُذيفة أهلاً لحفظ الأسرار فأْتمنه على بعض أسراره.[2] وكلف عمه العباس رضي الله عنه بأمور المخابرات في مكة، وقام عمه بهذه المهمة خير قيام.[3]

اختياره للقواد واختياره للرسل الذين أرسلهم إلى الملوك والرؤساء.. اختياره للطلاب لكي يكونوا رجال علم في "الصُّفّة".. اختياره لعمال جمع الزكاة، كل هذه الاختيارات كانت صائبة كما أثبتتها الأيام.

أجل، إن من المهم جداً لكل قائد أن يعرف تماماً نوعية الأشخاص الذين يعهد إليهم القيام بمهمات معينة، والتاريخ يذكر الأخطاء الكثيرة والكبيرة التي اقترفها الكثير من الزعماء والقادة في هذا الأمر، فكم من قائد خانه من قربه إليه وجعله من خاصته.

استخدم الرسول ﷺ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه في الأمور المالية، واستمر في خدمته هذه للشؤون المالية في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أما في عهد عثمان رضي الله عنه، الذي كان يخص من ماله الخاص بعض أقربائه بالعطاء، مما أدى إلى انتشار شائعة بأنه يفضل بني أمية على سائر المسلمين، فقد جاء الأرقم بن أبي الأرقم إليه وسلمه مفاتيح الخزينة قائلاً له بأنه لا يستطيع العمل في مثل هذه الظروف وفي ظل هذه الإشاعات.[4]

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٢٤٠

(٢) **البخاري**، المناقب، ٢٠

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ١/٢٨-٢٩

(٤) «**الإصابة**» لابن حجر ١/٢٨-٢٩

و- محبوب القلوب

كان قائداً يحب الناس ويحبه الناس، إلى درجة أن كل فرد كان يحس أنه هو الأقرب إلى قلبه، كما يحس أنه هو الأكثر حباً له.

كان يحب.. فكم من مرة التفتَ في مسجده قبيل وفاته واستعرض وجوه أصحابه ودمعت عيناه، لأنه كان يعرف جيدا أنه وإن التقى بهم بعد مدة إلا أنه سيفارقهم قريباً، ولن يراهم مرة أخرى في عالم الشهادة.. لقد آن رحيله إلى الرفيق الأعلى، فأهل السماء كانوا ينتظرونه بشوق، غير أنه لكونه أنموذج الوفاء، ذرف الدموع حزناً على مفارقة أصحابه الأحبة، ولكن منظر أصحابه وهم يصلون كان يملأ قلبه فرحا وحبورا وتجد البسمة طريقها إلى شفتيه المباركتين.[1]

كان يحب أصحابه ويصونهم ويقول: «لا تَسُبّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذَهَباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه»،[2] ويقول: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»،[3] وأحاديث أخرى أيضاً تشكل دليلاً على هذا الحب وهذه الصيانة.

ثم إنه كان محبوباً من قبل الآخرين.. محبوباً بحب لا يوصف، بحب يسري في شغاف القلوب.. ثم ألم يكن حبه دليلاً على كمال إيمان المؤمن؟[4] والصحابة الذين وصلوا إلى ذروة الإيمان وصلوا كذلك إلى ذروة حب الرسول ﷺ.

---

(١) **البخاري**، المغازي ٨٣؛ **مسلم**، صلاة ٩٨؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٢٤-٢٥

(٢) **البخاري**، فضائل اصحابي النبي، ٥؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٢١-٢٢٢

(٣) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١/١٣٢

(٤) **البخاري**، الإيمان، ٨؛ **مسلم**، الإيمان، ٦٩

عندما أحضر كفار قريش الصحابي خُبَيْب ﷺ الذي أسروه في ماء الرجيع إلى موضع الإعدام سألوه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك، وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فلو قال نعم، لربما أطلقوا سراحه ولكنه أجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه."[1]

بعد انتهاء معركة أُحد أرسل الرسول ﷺ رجلا ليبحث عن سعد بن الربيع ﷺ، فوجده جريحاً جرحاً بالغاً، فسأله عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغْ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأَبْلِغْ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف."[2]

كانت الصحابية سُميراء تبحث عن رسول الله ﷺ في ميدان المعركة وتسأل: "أين رسول الله؟" وعندما أشاروا إلى مكانه ورأته بأم عينها قالت: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[3] أي هينة، هذا رغم استشهاد زوجها وابنها وأبيها في تلك المعركة.

وبينما كانت نسيبة الأنصارية رضي الله عنها بيدها السيف تدافع عن الرسول ﷺ أشار الرسول ﷺ إلى ابنها الجريح وطلب منها مساعدته وتضميد جراحه.. كانت قد نسيت أن لها ابناً مقاتلاً وأنه جرح.. أسرعت إليه

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٧٦/٤

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤٤/٤

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٥/٣

وضمدت جراحه ثم قالت له: "قـــم يا بني ودافِــعْ عن رســـول الله."[(١)]

وتعرض أبو بكر الصديق ﷺ إلى الضرب حتى أغمي عليه، لأنه دافع عـــن الرسول ﷺ ودعا إليه.. وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منـــزله وهم لا يشكون أنه ميت، وجعل أبوه وبنو تيم يكلمون أبا بكر وهو لا يجيب حتى كاد النهار أن يولي، ثم تكلم فكان أول ما قاله أنه سأل عن حبيبـــه ﷺ: "ما فعل رسول الله؟" فقاموا عنه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألَحّتْ عليه وجعل هو يقول: "ما فعل رسول الله ﷺ؟" فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك، وحَلف ألا يأكل شيئاً أو يشرب حتى يسمع عنه.[(٢)]

هذه الأمثلة ومئات غيرها تبين أن الرسول ﷺ كان محبوب قلوب صـــحابته الذين كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيله.. كما أصبح محبوب أمته جميعاً. كان محاطاً بهذه الهالة من المحبة الخالصة، لذا لم يكن هناك حرس أو خـــدم علـــى بابه[(٣)] لأنه كان يثق فيمن حواليه. كان الجميع يحبونه، وكان هو يحب الجميع.

ز- **كان ﷺ معصوماً منذ البداية**

كان ماضيه نقياً طاهراً، فلم يقترف شيئا يمكن أن يعد عيباً أو قـــصوراً.. كان أبو بكر ﷺ صديق طفولته وصباه، فلو رأى فيه عيباً أكان يـــسارع إلى

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٤١٨/٤

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤١٨/٤

(٣) **البخاري**، الجنائز، ٣٢؛ **مسلم**، الجنائز، ١٥

تصديقه أول ما أعلن نبوته؟ ألم تعجب أمنا خديجة رضي الله عنـــها بأخلاقـــه، فاختارته مع أن العديدين طلبوا الزواج منها؟ وكما تقـــول الآيـــة الكريمـــة: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور: ٢٦)، فالزوجة الطاهرة خديجـــة رضي الله عنها بذلت كل ما في وسعها لتكون الزوجة اللائقة لهـــذا الـــشخص الطاهر، وبقيت كذلك طوال حياتها.

كان خلقه الرفيع وخصاله الحميدة معروفة للجميع حتى قبل بعثته ﷺ حتى لقبه أهل مكة بـــ"الأمين" فاستقامته ووفاؤه بالعهد كان معروفاً للجميع. كـــان أبـــو جهل وأبو لهب يعرفان هذا ويعترفان به، وعداوتهما له واعتراضهما عليـــه كـــان سبب آخر، وإلا فإن جميع أعدائه كانوا يعترفون بأنه صادق في كل ما يقوله.

كان الطهر والنقاء والبعد عن كل إثم صفة من صفاته.. كان معصوماً على الدوام، لذا لم يقترف أي خطيئة. وسنرجع إلى صفته هذه فيما بعد بالتفصيل.

يقول "سير وليام موير (Sir William Muir)": "إن محمداً شخصية ممتـــازة ومثال للفضيلة.. لم يقترف طوال حياته أمراً يستنكف عنه أي رجل فاضـــل.. بينما استطاع هو أن يؤسس وأن يهدم دولاً، وفي أثناء معترك حياتـــه الحافلـــة حافظ على فضائله وعاش حياة نظيفة نقية."

كان إنساناً مبرءاً من الضعف الإنساني ومنـــزهاً عنه.. ذا قابليات عديـــدة واستعدادات عالية، ولم يكن إلا لنبي أن يجمع كل هذه القابليات السامية، ذلك لأن وجود كل هذه القابليات وبهذه المستويات الرفيعـــة لم تكـــن ضـــرورية لأشخاص عدا الأنبياء. فمثلا قابليته في التجارة كانت تؤهله لأن يكون أفضل

تاجر، ولكن قابلياته السياسية والعسكرية كانت تبقى معطلة وغير مــستعملة، هذا علماً بأنه إلى جانب كونه تاجراً جيداً كان إدارياً ممتازاً وعسكرياً عبقرياً، ولكن من الخطأ حتى حصره في مثل هذه المهن، ذلك لأنه خلق لكي يستوعب الإنسانية بأجمعها ويحتضنها. ومثل هذه الاستعدادات والقابليات لا توهب إلا لنبي أو رسول، وإلا فإن وجود استعداداته الأخرى كانت تعد آنذاك عبثاً والله تعالى منـــزه عن العبث.

كان ذروة في كل خير وفضيلة.. وكان هذا ضرورياً له لكي يبقى فـــوق كل قابليات واستعدادات أتباعه ويكون مرشداً وقدوة لهم. كان أبـــوبكر ﷺ يأتي بعده من ناحية القابليات، ولكنه كان تابعاً له، بل من أخلـــص تابعيـــه والمرتبطين به.

ح- النتيجة

قمنا بشرح القابليات التي يجب توفرها في أي زعيم، ثم نظرنا إلى الرسول ﷺ من هذه الزاوية، وعلمنا أنه الشخص الوحيد الذي تـــوفرت فيـــه كـــل هـــذه الصفات، وليس هناك أي شخص آخر استطاع الاقتراب منه لكي نتخذه مقياساً في هذا الأمر. ونصل من هذا إلى نتيجة مفادها أن خصال الرسول ﷺ وصـــفاته كانت في الذروة، فقد خلقه الله هكذا وزوده بصفات الخلق الـــسامي.. أي لم يكن هذا السمو سمواً بالنسبة للآخرين، بل سمواً ذاتياً.

كان قائداً عسكرياً كبيرا، حتى أنه من الخطأ التعبيرُ عن صـــفته وفطنتـــه الكبيرة هذه بكلمة "العبقرية"، وإن قصور اللغة وعدم كفايتها هي التي تقودنا

إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء دون تعمد منا فنسند إليه صفة العبقرية العسكرية، لأنه لا يمكن شرح الجانب العسكري للرسول ﷺ بهذه الكلمة، لأن هذا الجانب كان مرتبطاً بالوحي الإلهي وبفطنته كرسول، وهذا هو ما أردنا التأكيد عليه على الدوام.. أي التأكيد على أن جوانبه هذه أدلة على نبوته، ونحن نقترب من جميع المسائل المتعلقة بسيدنا ﷺ من هذا المنطلق سواء أذكرنا ذلك صراحة أم لا.

كان عسكرياً بصفات مميزة ومستثناة، بحيث أنه كان متفوقاً على العسكريين المحترفين الذين نشأوا في السلك العسكري منذ بداية حياقم، إذن، فلم يكن الجانب العسكري فيه من نفسه لأنه كان شخصاً أمياً لم ير حرباً من قبل سوى حرب الفِجار التي كانت نزاعاً محدوداً، و لم يشترك في تلك الحرب بشكل فعلي بل قام بنقل السهام إلى أعمامه. ولكنه بدأ الآن يدير معارك لها استراتيجياتها وينتصر في جميعها ويتفوق فيها تفوقاً يعجز عنه كبار القادة العسكريين المحترفين، وهذا من أدلة نبوته، ذلك لأنه:

أولاً: رسم بأمر من الله تعالى خط دعوة واضحة.. كان هدفه واضحاً وبيناً، كان عليه أن ينشر الحق ويزيل جميع العقبات والعوائق أمامه، وصرف كل حياته من أجل تحقيق هذه الغاية، واقترب هو وأتباعه يوماً فيوما من هذه الغاية وحدثت تطورات كبيرة ولكن الهدف بقي هو نفسه و لم يتغير و لم ينحرف عنه، فلم تكن الوصولية شيمة له ولا لأتباعه النجباء الميامين. والذين دققوا تاريخ فترة نبوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً يعرفون أنه لم يغير شيئاً مما قاله منذ بداية أمر نبوته بل استمر يقوله حتى نهاية حياته.

لم تكن الحرب غاية من غاياته في أي مرحلة من مراحل حياته، بل كانت الوسيلة الأخيرة التي يطرق بابها، إذ كان يقدم البدائل للطرف الآخر على الدوام، أما البديلان الأولان فكان إما الدخول إلى الإسلام أو إعطاء الجزية،[1] فمن قبل أحد هذين البديلين لا يجوز في الإسلام مقاتلته.

كان النبي ﷺ يذكّر القواد والجنود الذين أرسلهم إلى جهات عديدة بعدم التعرض أبداً للنساء والأطفال والشيوخ ومن لا يحمل السلاح،[2] وعندما أخطأ خالد بن الوليد وأسامة بن زيد ﷺ وقتلا بعض من توهما أنهم أظهروا الإسلام خوفاً ووسيلة للنجاة بأنفسهم فإن الرسول ﷺ عاتبهما عتاباً مراً.[3] أجل، لقد عين هدفاً معيناً لم يسر هو وأصحابه فقط نحوه، بل سار نحوه جميع الذين جاءوا بعده بعدة عصور والتزموا بهديه.

ثانياً: كان الرسول ﷺ يتحرك وفق شعاره "الهجوم أحسن دفاع". صحيح أنه اضطر للدخول في بعض الحروب الدفاعية، ولكنها كانت جميعها حروباً تهيء الفرصة والأرضية الصالحة للهجوم.

ثالثاً: كانت تصرفاته جميعها على بصيرة، فلم يدع شيئاً للحظ بل كان يحسب لكل خطوة حسابها. والدليل على هذا أنه لم يخط في حياته خطوة نحو الوراء، فمثلاً أراد الصحابة مرة أن يعرفوا عدد جيش العدو، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلى أن قبضوا على شخص وأكرهوه على الكلام، غير أن الرجل

---

(١) **الترمذي**، السير، ٤٨

(٢) **البخاري**، أحكام، ٣٥؛ **الترمذي**، السير، ٤٨؛ **النسائي**، القضاة، ١٧

(٣) **مسلم**، الإيمان، ١٥٨؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٥

عندما كان يَصدُق لا يصدّقونه ويبدأون بضربه، وعندما يكذب إرضـاءً لهـم يدَعونه، فأمر الرسول ﷺ أن يدَعوا الرجل وألاّ يؤذوه، ثم استدعاه إليه وسـأله عن عدد الإبل الذي ينحرونه كل يوم للطعام، واستنتج من هذا العـدد تعـداد جيش العدو، وأخذ أهبته له ووضع استراتيجيته حسب هذه المعلومات،[1] إذن، فلم يكن يخطو خطوة عشوائية، ويدقق أحوال وأوضاع عدده وعدد جيشه لكي يأخذ لكل أمر أهبته، وهذه هي إحدى الخصال الضرورية لكل قائد عسكري.

رابعاً: كان يتبع مبادئ معينة في تحركاته، و لم يدع هذه المبادئ، فقد كـان مثلاً يحدِّدُ الوقت الذي يقرره للهجوم على الأعداء، وغزوة خيبر مثال واضـح على هذا، فقد أظهر أنه متوجه نحو غَطَفَان ولكنه سار إلى خيبر، وظنت غَطَفَان أنه سائر إليها فتحصنت خلف أسوارها، واعتقدت خيبر أن الأمر لا يهمها وبعيد عنها، لذا لم تتخذ أي احتياط، وبينما كانت تفرك عينيها من أثـر النعـاس في الصباح الباكر لذلك اليوم قام المسلمون الذين كانوا قـد أدوا صـلاة الـصبح ودخلوا إلى أجواء عالم روحي بمباغتتهم، وكان هذا نتيجة تخطيط رائع للرسول ﷺ الذي كان يحل كل المشاكل وكأنه يشرب فنجاناً من القهوة.[2]

ودخل مكة بالمبدأ نفسه، إذ لم يكن حتى أبو بكر ﷺ يعلم وجهة الرسول ﷺ. وكانت مفاجأة أهل مكة كبيرة، وعندما علموا بالموقف لم يجدوا مجـالاً للهرب.[3] فقد التزم في الأمثلة التي أعطيناها سابقاً وفي جميع غزواته الأخـرى

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٩/٢

(٢) **البخاري**، الصلاة، ١٢؛ **مسلم**، الجهاد، ١٢٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٤٢/٣ وما بعدها.

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤٢/٤

التي لم نذكرها والتي وردت في كتب السـيرة بهذا المبدأ.

خامساً: كان يختار الوقت المناسب للدخول في صدام مع العدو بحيث يكـون وقت المعركة ومكانها في صالح المسلمين وفي غير صالح العدو، ففي معركة بـدر نـزل المسلمون في موضع يتوفر فيه الماء بينما تم حرمان المشركين من الماء.[1]

سادساً: كان يستعمل عامل الزمن استعمالاً جيداً، فقد أطال زمن معركة الخندق حتى هجم الشتاء على الأعداء فاضطروا إلى التراجع، كما كان موضع المعركة في صالح المسلمين.[2] كما أن توقيت معركة حُنين كان توقيتاً رائعـاً، فلو حصل هناك أي تأخير لما وجد المسلمون فرصة للهجوم بل لاضـطروا إلى الدخول في معركة دفاعية تحت ظروف غير مواتية لهم. ولكن رسـول الله ﷺ أعطى أوامره للتوجه إلى الأعداء في الوقت المناسب، فجعل عامـل الـزمن في صالح المسلمين، كما قام بسحب رماة العدو المتحصنين من أماكنهم إلى وسط المعركة، فقد تظاهرت القوة المتقدمة للمسلمين بالانسحاب فتتـبعهم الرمـاة الذين كانوا متحصنين جيداً وكانوا يمثلون أقوى قوة وسلاح للعدو، ولكنـهم عندما تركوا أماكنهم المحصنة وخرجوا إلى قلب المعركة فقدوا هذه الميـزة و لم تعد سهامهم تفيد كثيراً لأنهم دخلوا في معركة مواجهة قريبة حيـث يكـون العامل المهم فيها للسيف.. وكان توقيت الهجوم توقيتاً موفقاً.

سابعاً: لا شك أن تأمين الأرزاق والمهمات للجيش من أهم الـضرورات لجيش محارب، و لم يحدث في جميع غزوات الرسول ﷺ أن قام جيـشه بتـرك

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٧١-٢٧٢

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١١٧

القتال والانسحاب منه بسبب نقص في تموين هذه الأرزاق والمهمات. والقرآن الكريم يدعو الناس في مئات من آياته للإنفاق وإلى الجـود وهيـأهم لهـذا، واستطاع الرسول ﷺ تقييم هذا الاستعداد عند المسلمين أفضل تقييم، فالجهاد في الإسلام يكون بالنفس وبالمال.

ط- **التلاميذ الذين رباهم الرسول ﷺ**

تناولنا حتى الآن بعض سمات التكتيك الحربي للرسول ﷺ وبعض سمـات إجراءاته الأخرى، غير أنه كوّن جيشاً لا مثيل له في زمن قصير، هذا الجـيش الذي استطاع وفي فترة قصيرة فتح أرجاء المعمورة. لذا، فهو شخص لا مثيـل له ولا نظير في مجال تكوين الجيوش، وتهيئة الجنود والمقاتلين، ذلك لأنـه هـو المنشئ الأول للجيش الإسلامي، وعلى يده المباركة نشأ هذا الجيش المبـارك، أي أنه لم يأت على رأس جيش موجود سابقاً كما هي الحال لـدى القـواد العسكريين الآخرين.

وأهم ما يسترعي الانتباه أن الجيش الذي أعده الرسول ﷺ كان يتمتع بهذه الصفات المهمة الثلاث:

١. إعداد جيد.

٢. خلق ممتاز وتربية جيدة.

٣. إيمان في الذروة، وشعور وإحساس بالطاعة والولاء.

وعندما قال الرسول ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» فإنه كان يشير إلى الصناعة

العسكرية حتى يوم القيامة،[1] وهو من أقواله النيرة. وطبق كلامه هذا تطبيقاً فعلياً في عهده فاهتم بالرمي، وهناك أحاديث كثيرة تشوّق على الرمي وعلى إتقانه.[2] ومن بين هذه الأحاديث هناك حديث يجلب النظر وهو قوله لسعد بن أبي وقّاص في أثناء الحرب: «ارمِ فداك أبي وأمي»[3] ذلك لأن الرسول ﷺ قال للكثيرين "فداك أبي" أو "فداك أمي"، ولكن لم يقل لأحد سوى سعد "فداك أبي وأمي."

كان الرسول ﷺ يهيء جيشه بنفسه، وفي أوقات السلم يشجعهم على أداء الفعاليات الرياضية ويرتب بعض المسابقات بينهم، حتى أنه اشترك في بعضها،[4] كما أن ترتيبه لمسابقات المصارعة بين الفتيان الذين لم يبلغوا بعد سن القتال دليل على مدى اهتمامه بالفعاليات الرياضية.[5] كان الجيش الإسلامي في ذلك العهد قوياً من ناحية التدريب البدني لأفراده ومن ناحية التخطيط الجيد للحرب.. هذا علاوة على الروح المعنوية العالية لجنوده.

كان الجيش الإسلامي يتمتع بأخلاق تغبطه عليها الملائكة، إذ ربى الرسول ﷺ جنوداً أصبحوا مصدر الأمن والأمان لكل مكان وصلوا إليه، فلم يحدث أي حادث اعتداء على عِرض أحد في أي مكان تم فتحه من قبل الصحابة. أجل، كان هذا هو مقدار الوعي الأخلاقي والعفة التي بلغها الجيش الإسلامي. ولا

(١) **مسلم**، الإمارة، ١٦٧؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٣؛ **ابن ماجه**، الجهاد، ١٩

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٨٦، المناقب، ٤؛ **الترمذي**، فضائل الجهاد، ١١؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٣

(٣) **البخاري**، الجهاد، ٨٠؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤١

(٤) **البخاري**، الصلاة، ٤١، الجهاد، ٥٧؛ **مسلم**، الامارة، ٩٥؛ **النسائي**، الخيل، ١٦؛ **أبو داود**، الأدب، ٨

(٥) **البخاري**، الصلاة، ٤١، الجهاد، ٥٧؛ **مسلم**، الامارة، ٩٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٧٠/٣

شك أن هذه الأخلاق الحميدة وهذه العفة كانت نابعة من عقيدتهم، و لم يكن هناك أي فرد يسلك سلوكاً مغايراً لعقيدته، لأن هذا من موجبات الإيمان ونتيجة من نتائجه، والقرآن الكريم يشرح هذا فيقول: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

كانوا أصحاب إيمان عميق لا تمنعهم أي عقبة أو صعوبة من بلوغ أهدافهم، فقد وقف أمامهم في أثناء بعض الحروب إخوانهم[1] أو آباؤهم وأعمامهم.[2] مثل هذه المواقف التي ينشل أمامها الإنسان لم تستطع أن توقف الصحابة ولا أن تقذف في قلوبهم التردد والإحجام، بل قاموا بتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم والتوجه إلى الهدف المرسوم لهم. أجل، قام الرسول ﷺ بتشكيل جيش لم يدر حتى ذلك اليوم بخلد العالم مثيل له، فسيوف جنود هذا الجيش كان من الممكن أن تقتل آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم، وكان من الممكن أن يؤدي أي تردد في هذا الخصوص إلى شل حركة الجيش كله، بينما لم يتردد جندي واحد في جيش رسول الله لحظة واحدة أبداً.

تقابل أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه في معركة بدر مع والده، فتنحى وحاد عنه، ولكن والده تعقبه حتى اضطره إلى منازلته وقتله، فلم يكن وقوف والده أمامه

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٣/٤٧٥

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٢٥٢-٢٥٣

في المعركة ليحول بينه وبين المضي في أداء مهمته، فالدعوة هي الدعوة، فمن وقف أمامها يجب إزاحته عن الطريق –هذا إذا استثنينا بعض الحالات التي تتطلب بعض الرحمة واللين– و لم يكن هذا التصرف مقتصراً على أبي عبيدة ﷺ بل كان الآخرون مثله.[1]

وهذا عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شهد معركة أُحد مع المشركين ورأى والده فتجنبه، وبعد أن أسلم قال له: قد رأيتك يوم أُحد فصفحتُ عنك، فقال أبو بكر ﷺ: "لكني لو رأيتك لم أصفح عنك."[2]

كان الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ مغتماً أشد الغم مما فعله أبوه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول ويعلم أنه استحق عقوبة الموت، غير أنه كان كثير التوقير لوالده، فأتى رسول الله ﷺ وهو يظن أنه أمر بقتل والده فقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتْ الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشي أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار."[3]

كان عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ صحابياً جليلاً، ولكن والده كان

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٢٥٢-٢٥٣

(٢) «**المستدرك**» للحاكم ٣/٤٧٥

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٣١٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٧٩-١٨١؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٠٤-٣٠٥

رأس المنافقين، ولكن الرسول ﷺ لم يشأ قتل هذا المنافق، بل أمر ابنه أن يبر أباه ويحسن إليه. وقد سبق وأن ذكرنا أن هذا الصحابي قال لأبيه بأنه لن يسمح له بدخول المدينة حتى يقول: "إنني أنا الأذل، ومحمد ﷺ هو الأعز"، ذلك لأن أباه كان قد قال: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذل، حيث وصف نفسه بأنه هو الأعز والرسول ﷺ هو الأذل. –حاشاه–[1] وكان ابنه يرغب أن يبرهن أن العكس هو الصحيح.

لقد آمن الصحابة ﷺ بأنه ﴿وَمَا كَانَ لِنفسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، لذا كانوا يتجولون في ساحات القتال دون خوف أو وجل، وإلا فكيف يمكن تفسير لا مبالاة أبي دُجانة ﷺ في ساحة القتال؟[2]

كان علي بن أبي طالب ﷺ كثيراً ما يمرض، ولكنه كان يطمئن أهله وأصدقاءه القلقين عليه بأنه لن يموت من مرضه هذا، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بأنه لن يموت إلا عندما تتخضب لحيته من دم رأسه مثلما أخبره الرسول ﷺ.[3]

قطعت أذن عمّار بن ياسر ﷺ في إحدى المعارك وبدأت الدماء تنزف بغزارة، ولكنه كان يطمئن القلقين على حياته بأنه لن يموت من هذا النزيف لأن رسول الله ﷺ قال له: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله

---

(١) **البخاري**، المناقب، ٨؛ **مسلم**، البر، ٦٣، صفات المنافقين، ١

(٢) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٢٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٢٣/٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠٩/٦

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد ١/ ١٠٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٥٨/٧-٣٥٩

ويدعونه إلى النار.»[1] كان متأكداً من هذا و لم يكن يشك من مصيره هذا.

كان هذا الإيمان هو الذي يقلب جميع حسابات الأعداء ويفشل خططهم. وهذا الإيمان هو الذي يفسر الشجاعة الكبيرة التي تدفع إنساناً إلى الخوض في مياه المحيط ليجاهد في سبيل الله.[2]

ولا أدري أيجب ذكر طاعة الصحابة للرسول ﷺ؟.. طاعتهم له من البديهيات فما أن نتذكر الصحابة ﷺ حتى نتذكر معنى الطاعة الكاملة، ولما كان هذا موضوعاً مستقلاً آخر فلا نخوض فيه هنا. ألممنا فيما سبق بعض الإلمام بالأهمية التي كان الرسول ﷺ يوليها للتدريب العسكري، ولكي يكون الختام مسكاً فسنورد هنا حديثين وآية.

يقول الرسول ﷺ: «علموا أبناءكم السباحة والرمي»،[3] ويقول: «من عَلِمَ الرّمْيَ ثم تركه فليس منا، (أو) قد عصى»،[4] ويأمرنا ربنا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ٦٣؛ **مسلم**، فتن، ٧٠؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٤؛ «**كنز العمال**» للهندي ٥٣٧-٥٣٦/١٣

(٢) «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير، ١٠٦/٤

(٣) «**كنز العمال**» للهندي ٤٤٣/١٦؛ «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٦٨/٢

(٤) **مسلم**، الإمارة، ١٦٩؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢٣

تم الجزء الخامس من سلسلة النور الخالد

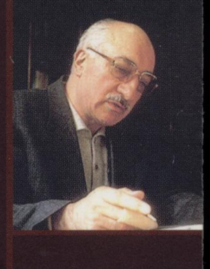
ويليه الجزء السادس وهو

"العصمة النبوية"

فهرس

القسم الرابع

الرسول ﷺ قائدا



المؤلف: محمد فتح الله كولن

عندما نطالع شروط القيادة الناجحة ونأخذها بنظر الاعتبار نرى أن أفضل وأنجح قائد في تاريخ البشرية كلها هو محمد ﷺ صاحب الفطنة العظمى، لأنه كان قمة لم يصل إلى مستواها أحد.

كان رسول الله ﷺ قائدا عسكريا من طراز فريد، بحيث أنه كان متفوقا على العسكريين المحترفين الذين نشأوا في السلك العسكري منذ بداية حياتهم، ولم يكن الجانب العسكري فيه من نفسه، لأنه كان أميًّا لم يشارك في حرب بالمعنى الحقيقي قبل نبوته. ولكنه بدأ الآن يدير معارك لها استراتيجياتها وينتصر في جميعها ويتفوق فيها تفوقا يعجز عنه كبار القادة العسكريين المحترفين. وما هذا إلاّ دليل من أدلة نبوته.

المترجم: اورخان محمد علي

دار النيل
للطباعة والنشر


ISBN 975-315-177-2
9 789753 151771